كونفوشيوس والكونفوشيوسية

اسامة عبد الرحمن

مقدمة

قبل أن نشرع في تقديم عرض موسع لفكركونفوشيوس الإنساني، يجدر بنا أن نلقي بعض الأضواءعلى التراث الروحي والفكري في الصين القديمة قبل ظهوركونفوشيوس، خاصة، إذا علمنا أن فكر كونفوشيوس ماهو، في حقيقة أمره، إلا امتداد للفكر السابق عليه

من هنا آثرنا، قبل أن نعرض لفكر كونفوشيوس الإنساني، أن نحيط القارئ علما بتراث الصين الروحي والفكري، والمصادر الحقيقية لهذا التراث، والحضارة التي نشأ وازدهر فيها، ومعالم النظم الحضارية من اجتماعية وأخلاقية وسياسية، التي أبدعتها الصين القديمة إن هدف هذا البحث هو إعطاء صورة واضحة عامة عن الفكر الصيني من جهة، وعرض آراء كونفوشيوس في شيء من التفصيل من جهة أخرى، سواء في التربية والتعليم، أو في الأخلاق والسياسة، والدين والميتافيزيقا، أو في تقويم الأسماء، حيث تركت شخصيته طابعا قويا كان له أثره على الأجيال المتلاحقة

يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان الشعراء أحرارا في قرض الشعر، والناس أحرارا في تمثيل المسرحيات، المؤرخون أحرارا في قول الحق، والوزراءأحرارا في إسداء النصح، والفقراء أحرارا في التذمر من الضرائب، والطلبة أحرا رافي تعلم العلم جهرة، والعمال أحرا را في مدح مهارتهم في السعي إلى العمل، والشعب حرا في أن يتحدث عن كل شيء، والشيوخ أحرا را في تخطئة كل شيء من خطبة ألقاها دوق جو بين يدي الملك لي وانج حوالي عام ٨٤٥ ق م

التراث الروحي في الصين يتميز الصينيون بأنهم شعب ذو ثقافة عامة موحدة، وبأن مدنيتهم تعد من أقدم المدنيات القائمة في العالم وأغناهافي التاريخ فكانوا يعتبرون العلماء منهم لا الجنود أبطالهم المفضلين وقد تكاملت مدينة الصين في عصر مبكر، وعلى عكس المدنيات القديمة العظيمة الأخرى لم يصبها الانهيار في يوم من الأيام، ولكنها استمرت في تقدمها تتناوب عليها فترات تختلف في مدى

نجاحها منذ وقت ظهورها وفي عهد كونفوشيوس -الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد كانوا يفخرون بثقافة يرجع تاريخها إلى عشرين قرًنا قبل المسيح، استطاعت أن تحفظ الكيان الخلقي لهذه البلاد مدى أربعة آلاف سنة، بل إن احتفاظ الصين باستقلالها إلى الآن يرجع إلى تم سكها بالأخلاق العالية المسجلة في فلسفتها، والمدونة في ثقافتها العميقة المبتدعة

وقد دفعت الأخلاق الصينية السامية المبشِّرين المسيحيين الذين اتصلوا بالصينيين في القرن التاسع عشر، فيما يروي ذلك الأستاذ زانكير ، إلى أن يعلنوا أن الإله قد أوحى إلى الصينيين كما أوحى إلى الإسرائيليين، وأن شانج لي ليس إلا الرب السماوي المذكور في الكتاب العبري

اسامة عبد الرحمن

الباب الأول
ما قبل كنفوشيوس

اننا نعرف الكثير عن رجال العهد الحجري الذين كانوا يعيشون في الصين ، ولكن ، لما لم يكن في متناول أيدينا شيء مما دونوه ، فان ما نستطيعه فقط هو أن نخمن فيما كانوا يفكرون وكانت أقدم كتابة صينية وردت لنا من مدينة كانت عاصمة لملوك شانج حوالي سنة ١٥٠٠ ق م لقد كانت مركزا لحضارة متقدمة فعلا بصورة ملحوظة ، كما تبرهن على ذلك المباني الضخمة والأواني البرونزية الجميلة والمنسوجات الحريرية المتقنة النسب ، واشياء اخرى كثيرة وعلى الرغم من أن هؤلاء الناس كانت عندهم كتب قد بليت منذ زمن طويل ، فلقد كانت الكتابات الوحيدة التي بقيت لنا منهم عبارة عن نقوش قليلة مسجلة على العظام والحجارة وهذه التسجيلات القليلة تجعلنا ننظر نظرة محيرة إلى احتفالاتهم الدينية المنسقة تنسيقا متقنا والى تنظيمهم السياسي العظيم ، ولكنها ليست بكانية في تزويدنا بالكثير عن فلسفتهم.

وهؤلاء الناس المثقفون ثقافة عالية في شانج غزاهم في سنة ١١٢٢ قم طبقا للتاريخ التقليدى أفراد قبائل حفاة من الصين الغربية ، وكان يقود الغزاة فرقة تعرف باسم تشو ، ، فأسسوا أسرة تشو الشهيرة ولقد مرت بهؤلاء المحاربين الشجعان ، في بادىء الأمر ، فترة صعبة اذ بينما كانوا يعرفون معرفة تامة كيف يأخذون الأراضي بالقتال ، واجههم أمر آخر هو المحافظة عليها عن طريق حكومة منظمة أحسن تنظيم

وبعد بضع سنوات من الغزو مات ملك تشو وتوج ابنه خليفة له ، ولكنه لما كان صغيرا جدا فانه لم يستطع أن يحكم بالحزم الذي يستلزمه الموقف ، وبدات امبراطورية تشو في التمزق وأنقذها من الدمار : عم الملك الصغير ، الذي كان يطلق عليه اسم دوق تشو ، وتدخل ونصب نفسه وصيا واضطلع بأمر الجيوش وعاقب كل أولئك الذين حاولوا أن يثوروا ، وحكم البلاد بيد من حديد أما ابن أخيه

، الملك الصغير ، فلعله كان يتوقع أن يقتل ولكن الدوق برهن على أنه رجل ذو مبدأ عال وما أن زال الخطر حتي استبدل بالقوة الحكم العادل ، وأظهر براعة فائقة في تنظيم الامبراطورية على أساس سليم : وبعد سبع سنوات أعاد السلطة إلى الملك وبرغم أن دوق تشو عاش قبل كنفوشيوس بعدة قرون فقد كانت الصين تبجله على أنه مؤسس التقاليد والكنفوشيوسية، بل ان بعض الصينيين يعتبرونه أسمى مرتبة من كنفوشيوس ، ولم يكن مرد هذا لشخصيته فحسب ، بل أيضا لأنه ، في حرارة الأحداث المضطربة التي اشترك فيها ، تشكلت أراه معينة كانت لها أهميتها الكبرى في التفكير الصيني من ذلك الوقت ، ولفهمها يجب أن تطلع على الأسلوب الذي نظم به المجتمع الصيني في هذا الوقت وكان كل مظهر تقريبا ، من مظاهر الحياة تسيطر عليه الأرستوقراطية الوراثية في عهود تشو ربما في عهود شان ايضا ، وكان المؤسسون المشهورون من الأسرات الأرستوقراطية في كثير من الحالات أبطالا أسطوريين ، ان لم يكونوا آلهة وكان من المعتقد أن أسرة ملوك تشو قد انحدرت من جد يدعى هو تشى ، والمعنى الحرفي لهذا الاسم هو ملك الذرة ويبدو واضحا أنه كان أصلا الها زراعيا ، ونقرأ في أحد الكتب القديمة وهو كتاب الشعر ، عن ولادته رواية عجيبة : اذ حملت به أمه عندما خطت على آثار قدم اله من كبار الآلهة وكشأن عديد غيره من الأطفال المشهورين أهمل شأنه ، ولكن من العجيب أنه لم يصبه أي ضرر ويروى عنه الشعر أنه : وضع في درب ضيق ، ولكن الغنم والثيران كانت تحميه في رقة ووضع في غابة فسيحة ، ولكن الحطابين وجدوه هناك ووضع على ثلج بارد ، ولكن الطيور غطته بأجنحتها وعندما شب هذا الجد العظيم صار يعلم الناس كيف يزرعون الحبوب ولم يكن مؤسس الأسرة الأرستوقراطية البعيد هو وحده الذي أمدها بقوته ، بل أمدها بالقوة كل أسلافها وكان المعتقد هو أن الأرستوقراطيين بعد مماتهم يحيون في السموات حيث يشرفون على مصير ذرياتهم ، وكان من الطبيعى ، مالم يكونوا ساخطين تماما على حفدتهم ، أن يمنحوهم النصر في الحرب والرخاء في السلم

وفي مقابل هذه الأفضال كان المتوقع أن يقوم الأحفاد بتقديم القرابين المعتادة لهم ويحققون رغباتهم إلى أقصى حد، وهذه الرغبات قد يتعلمونها بالكهانة أو بالوسائل الأخرى وكان يتضح اعتماد الحكام في كثير أو قليل على أجدادهم ، في عدد كبير من الوثائق ونجد في نقش على وعاء برونزي أن أحد النبلاء يفاخر بأن أجداده الأعلين البارعين يفسحون طريقا لحفد تهم الذين هم على الأرض ، وقد ذكرت احدى القصائد الواردة بكتاب الشعر، أن قوة بيت تشو في فترة معينة ، كان مردها إلى حقيقة أنه كان لها ثلاثة حكام سابقين صعدوا إلى السماء، بالاضافة الى الحاكم الذي يحكم على ظهر الأرض وفي مثل هذا الوضع لم يكن يأمل أحد من عامة الشعب في أن يصبح حاكما صغيرا أو كبيرا لقد كان يفتقر الى المقومات الأساسية وهي الأجداد ذوو النفوذ ، وكان عامة الشعب تقريبا ، فيما عدا قلة من الصناع ، فلاحين وربما كانوا عبيدا ومن المشكوك فيه أن كانت لهم أية حقوق ثابتة تقف في وجه النبلاء الذين يبدو أنهم كانوا يعاملونهم كما يروق لهم لقد كان هناك بيان قديم يضع الذكور الفارين والخادمات في نفس المرتبة التي توضع فيها الماشية الضالة وتقول احدى القصائد في كتاب الشعر ، ان عامة الشعب قانعون ، ففي كل يوم عندهم ما يكفي للاكل والشرب، ومع ذلك فقد أوضح نفس الكتاب القديم انهم في الحقيقة لم ياكلوا قط ما يكفيهم من طعام ، وتقول احدى القصائد : صارت السماء الرحيمة تلقي بالرعب في غضبها فتمطرنا بالدمار ، وتبلونا بالمجاعة وطل الناس قد تغرق شملهم وهم يحاولون الهرب والمناطق المستقرة والريف المكشوف سواء فيما أصابها من دمار وتذكر لنا اخرى : تخلى الحظ الطيب عن الناس لأن السماء تخلت عنهم وقد يشق الغنى طريقه ، ولكن وا أسفاه على الوحيد والذي لا أنيس له هل كان عامة الشعب راضين لو كان عندهم فقط ما يكفي للأكل والشرب ؟ فيما يتصل بالفترة المبكرة ، من الصعب أن نعرف فقد كانت قلة من عامة الشعب ، ان وجدت ، في استطاعتها أن تكتب حتى أننا قد بلغنا القليل مما كان عليهم أن يذكروه وعلى الرغم من ذلك نجد بعض الأدلة على التحدي ، خاصة للخدمة العسكرية

الاجبارية التي انتزعت الأبناء من آبائهم والأزواج من زوجاتهم بدون أية ضمانات ، وكان هناك احتمال بسيط في بعض الأحيان أن يشاهدوهم مرة أخرى ويبدو أنه كان في مقدور الارستوقراطيين أن يعاملوا خدمهم من عامة الشعب تماما كما يروقهم ، فيغرضون عليهم الضرائب أو يجبرونهم على القيام بأعمال بالقوة ويعاقبونهم كما يتفق مع نزواتهم وبرغم ذلك فلقد كانت سياسة من الأرستوقراطيين ضعيفة اذ جعلوا الحياة قاسية جدا أمام الناس بوجه عام ، وكانت هذه هي الحال بوجه خاص بعد غزو تشو مباشرة وفي ذلك الوقت كان حكام تشو ومواليهم الاقطاعيون وافدين جددا على غالبية شمال الصين ويبدو أن فتوحات تشو لم تمتد إلى جنوب الصين، وكانوا يعيشون في مدن مسورة محاطة بسكان إما أعداء أو متبلدى الشعور ، وعلى شاكلة معظم الفاتحين الناجحين أدركوا بسرعة أنهم اذا كانوا قد تمكنوا من أن يفتحوا فتوحاتهم بالقوة فهم لا يستطيعون أن يحكموها بالقوة وحدها ، ومن ثم ، كانوا بالغي الحكمة اذ أدركوا أنهم في حاجة إلى رضا شعبى وكان دوق تشو يعرف ذلك تمام المعرفة ، لقد كان مقاتلا وكان يعرف كيف يهدد الناس ويعاتبهم وبرغم طبيعة الروابط الأسرية المقدسة فقد نفي واحدا من اخوته وأعدم آخر لأنهما قد تجاسرا على مساعدة أهالى شان لكي يقوموا بمحاولة فاشلة للثورة ، ولكن بعد أن أخمدت الثورة وانزل العقاب بقادتها ، حاول أن يسترضي أهالى شانج لقد ذكر لهم أنهم سيعاقبون بلا هوادة اذا قاوموه ولكنهم اذا ما تعاونوا مع ال تشوفسيزدهر مستقبلهم وفي بيان بقى لنا ، ذكر الدوق الأرستوقراطي شانج أن السماء ستظهر عطفها عليكم ، ونحن أسرة تشو سنساعدكم مساعدة كبيرة وسنكافئكم ونختار كم لتعملوا في بلاطنا الملكي ، واذا اديتم واجباتكم على أكمل وجه فستصبحون من كبار ضباطنا ،ولدينا عدد من الوثائق التي حفظت لنا من العهود الأولى لأسرة تشو ، ونسبة كبيرة منها تعزو التقاليدو تأليفها إلى دوق تشو ، ويعتقد بعض العلماء أنه اذا كان بالفعل قد دون جانبا منها، فان الوثائق الأخرى قد دونها قادة تشو الآخرين ولكنها نسبت خطا الى دوق تشو نظرا للمكانة التي ظفر

بها اسمه ولسنا في حاجة إلى الدخول في الخلافات الخاصة بهذا الموضوع، ويكفينا أن نسجل أن دوق تشو قد أظهر ، ولعل بعض الأرستوقراطيين الأولين من أسرة تشو قد أظهروا ، بكل تأكيد ، ميولا سلمية لا للأرستوقراطيين الذين غزوهم فحسب بل أيضا لعامة الشعب ولقد ذكرت التعليمات التي أصدرها أحد حكام تشو إلى أحد عماله : وسأشرح لك كيف أن الفضيلة يجب أن تتحكم في استخدام العقوبات في هذا الوقت لم يعد الناس في حالة هدوء ، ولم تهدأ ثائرتهم بعد ، وعلى الرغم من أنهم يدفعون من حين لآخر لأن يتفاهموا معنا ، الا أنهم لم يفعلوا ذلك بعد كان جادا اولا تفعل ما قد يجلب الكراهية ، ولا تتبع المشورات الزائفة والأساليب غير المألوفة كن عادلا ومخلصا في أحكامك تمسك بفضيلتك ، كن بعيد النظر في كل تخطيطك حتى تهدىء ثائرة الناس فاذا قمت بهذه الأعمال فلن أقصيك عن منصبك ولن أقتلك وفي مكان آخر يذكر الكاتب أن الإنسان يجب أن يتعامل مع الناس كما لو كان المرء يحمي أطفالا وتذكر وثيقة مماثلة : عندما ينصب الملوك ولاة ليحكموا الناس يقولون لهم : لا تكونوا قساة أو ظالمين ولكن توسعوارفي حمايتكم حتى تشمل الأرامل ، وعبارات من هذا اللون كثيرة جدا ، ونجدها لا في الأدب المتوارث فحسب ، حيث قد تتشكك في أنها قد أضيفت مؤخرا ، بل نجدها كذلك في النقوش على الأواني البرونزية الباقية من ذلك العهد حتى الآن، وهذا يذكرنا بالتصريحات المشابهة المنطوية على الورع والتي يصرح بها الحكام الأوروبيون الذين كانوا يعلنون أحيانا عن أنفسهم أنهم ليسوا حماة الكنيسة والمدافعين عنها فحسب بل أيضا حماة الأرامل واليتامى والغرباء والمدافعين عنهم ، وواضح تماما أن مثل هذه التصريحات تعلن الأسباب مختلفة وربما قد تكون أو لا تكون دليلا على الشعور الخير المخلص من جانب أولئك الذين صرحوا بها ، ولكن هذا لا يغير حقيقة أن مجرد الإدلاء بمثل وجهات النظر هذه قد يكون ذا آثار هامة في التاريخ وقد استطاع أحد هذه المفاهيم التي تطورت في أعقاب فتوحات أسرة تشو أن يلعب دورا هاما بصورة خاصة وكان ملوك شانج يقدمون القرابين

الى أسلافهم في بذخ وكانوا يؤمنون بان مساعدتهم في مختلف الأعمال كانت لها أهمية حاسمة ولا مجال للشك في أن حكام شانج ، مثل ملوك تشو الذين خلفوهم كانوا يعتقدون أنهم يحكمون بموجب حق الهى لقد غزا ملوك تشو البلاد بقوة السلاح ولكن هذا لا يمكن أن يقال ، الا بعد اجراء تعديل ، لتحويل الحق الالهي إلى حكم لقد كان تبرير الغزو اجراء يبعث دائما على الحيرة انه يستلزم دائما قدرا معينا من الاستعانة بالأسطورة يستسيغه الشعب عن طريق الدعاية ، وفي الوقت الراهن غالبا ما تأخذ الأسطورة شكل مبدأ توضيح المصير لقد أطلق حكام تشر على مبدئهم اسم : قانون السماء وكانت السماء أعظم الآلهة قدرا وقد ذكر حكام تشو أنه لم تكن في نيتهم غزو أراضي شانج بل على العكس من ذلك ، فان عبه هذا الغزو قد ألقته السماء على كاهلهم لماذا ؟ لأن أخر ملوك شانہ كان وغدا مخمورا يظلم رعاياه ويتهكم على الآلهة ويغشهم في ضحايا قرابينهم، ولهذا السبب قررت السماء أن تفقد الأمل في سلالته وسحبت منه وقرارها ، في مباشرة حكم الصين ، وأسند هذا القرار بعد ذلك الى زعيم شعب تشو الذي امرته السماء بان يغزو شانج وأن يعتلى العرش وعلى الرغم من أنه من الصعب التحقق من قصة تتناول تلوك الآلهة ، ونظرا لأن معلوماتنا عن هذه الحقبة ضعيفة ، إلا أننا على الرغم من ذلك نعرف ما فيه الكفاية لنزع الثقة من هذه الرواية ويوضح الدليل الأثري أن آخر ملك من ملوك شانې ، لم يكن ، في الحقيقة ، ضالا متلانا ، اذ يبدو على العكس من ذلك ، أنه كان نشيطا بصورة خاصة ، وكان بعيدا عن أن يتهم باهماله للطقوس الدينية وهي التهمة الموجهة اليه ، اذ كان يهتم اهتماما شخصيا غير عادي بهذه الاجراءات ، ويبدو أنه كان حريصا أشد الحرص على أدائها ولكن هذا الأمر ، بطبيعة الحال ، لم يدخل أي تغيير على قادة تشو ، لو استطاعوا فقط أن يؤثروا على الشعب ليؤمن بتفسيرهم للتاريخ ؛ وقد فعلوا ذلك أخيرا ويبدو أن بعض الوثائق التي وصلت الينا وثائق محرفة صدرت في ذلك الوقت بقصد الدعاية لأل تشو وهناك أيضا بعض الأسباب للاعتقاد بأنه كانت توجد في شان آثار أدبية تناقض

تلك الدعاية لقد اختفت ، ويمكن أن نفترض منطقيا أن ال تشو ربما أبادوها على الرغم من عدم وجود دليل فعلي على أنهم قاموا بذلك لقد برر تشو غزوهم لشعب شانج بقولهم أن التاريخ يعيد نفسه ، وقالوا انه قبل ذلك بقرون عديدة كان أحد حكام شانج المعروف باسم تائج الموفق وقد عينته السماء بنفس الطريقة ليحل محل الملك الشرير آخر ملوك الأسرة السالفة وهو المعروف باسم هسيا على الرغم من أن هناك قدرا كبيرا من رواية منقولة تتناول أسرة هسيا فانه ليس لدينا أي دليل أثرى يمكن أن يكون له صلة به هذا السرد للتاريخ قد أتاح لغزو تشو سابقة وجعله مجرد حادثة يتكرر أمثالها ولا تزال رواية شانج لتاريخ شانج محفوظة لنا في كتاب الشعر، وتسجل الوضع بصورة مختلفة ومن ثم كان في الإمكان أن يقوم زعماء تشوى بتبرير الغزو ، بتبديل نمط التاريخ الصيني باكمله وفي الكتابات التي وصلت الينا يبدو أمير تشر كمحام زعيم المبدأ القرار السماوي ، لقد أوضح ذلك في اسهاب بالغ في بيان أعلنه على شعب شاني الذي غزاه ويلاحظ أنه يشير أحيانا إلى زعيم الآلهة على أنه ر تى ، وأحيانا على أنه السماء ، وكان هذان الاسمان يستخدمان بالتناوب في ذلك الوقت ، وقال الأمير، وكان يتحدث باسم الملك : أنزل وتى ، العقاب باهسيا، ، ولكن حاكم هسيا لم يفعل سوى أن زاد من تمتعه ببذخه ولم يكن على استعداد لأن يتحدث إلى الناس مواسيا لقد كان داعرا وجاهلا ولم يكن في استطاعته أن يستسلم هو نفسه يوما واحدا لتوجيهات تى ، وهذه الأمور سمعتم عنها لقد كان يسخر من أوامر وتى،ان توقيع جزاءات العقوبات الشاقة لم يؤد الا إلى تصعيد الفوضى داخل مملكة هسيا انه لم يكن يحكم الجميع حكما عادلا وكان حزنهم وازعاجهم يزداد يوما بعد يوم وعند هذه المرحلة لجأت السماء ، إلى حاكم حقيقي للشعب فأصدرت قرارها الواضح المفضل الى تائج الموفق، الذي عاقب وقضى على حاكم هسيا ومن عهده إلى عهد تي الأول ملك شانج قبل الأخير كان الحكام جميعهم ، بما لهم من فضائل ممتازة حريصين في استخدام العقوبات ومن ثم كان في مقدورهم أن يباشروا تأثيرا يستنهض همة الشعب ولكن لما وصل الحكم

إلى حاكمهم الأخير آخر ملك من ملوك شانج لم يكن في استطاعته ، مع كل ولاياتكم العديدة ، أن يستمر في التمتع بالقرار السماوي وآه يتحدث الملك عن النتيجة التالية : أذيع وأعلن عليكم لم تكن السماء راغبة في الخلاص من حاكم هسيا أو حاكم شانج في هذه النقطة ، ورد بالنص اسم هن Yin وو هو اسم آخر بدلا من شانج ولقد بدل هذا الاسم الى اسم آخر بقصد التبسيط ولكن كان حاكمكم فاسقا تماما وكان يسخر من الأوامر السماوية كان كسولا ومتباطئا ، واستهان بأعمال الحكومة ولم يكن ليقدم القرابين الخالصة ، ولذا أنزلت السماء به الدمار ثم بحتت السماء بين أقاليمهم العديدة عن شخص قد يكون متيقظا لأوامرها ، ولكن لم يكن هناك أحد يستطيع أن يفعل هذا ومع ذلك ، فهناك ملكنا تشو ، الذي كان يحسن معاملة الجماهير وكان فاضلا ، وفي عناية كان يرأس تقديم القرابين إلى الأرواح والى السماء ، ولذا أمرتنا السماء أن نغتنم من فضلها و كرمها ، واختارتنا ومنحتنا القرار الممنوح لشانج لنحكم أقاليمكم العديدة ، قد يكون من المستحيل المبالغة في أهمية هذه الفكرة بالنسبة لتاريخ السياسة الصينية والفكر الصيني ، ومنذ ذلك الوقت وماجاء بعده ، كان النمط العادي للثوار هو التمسك بملكية , القرار السماوي ، ثم في عصرنا هذا كان الحزب الثوري الذي يتزعمه د دكتور صن يات صن ، يطلق عليه في وقت من الأوقات رابطة تبديل القرار

بل أن هناك ما هو أكثر أهمية وهي الأسباب التي زعم من أجلها أن السماء قد حولت فضلها وكرمها و ذكر أن السماء تخلت عن حكام لأنهم ، من بين جرائمهم الأخرى ، لم يعاملوا الناس بالحسنى وكانت النتيجة نظريا ، قيام مبدأ وجود الحكام رهن بمصلحة الناس وليس عكس ذلك ، وأنهم انما يباشرون سلطاتهم في نوع من الأمان ، أو من قبيل التفويض ، وهم عرضة أن تسحب منهم سلطاتهم اذا لم يحسنوا استخدامها وفي البداية كان هذا أكثر قليلا من نظرية ولدتها احتياجات الدعاية ، ولكنه أمر لا يهم وكان للنظرية وجود ، وقد يأتي وقت قد تكون فيه ذات أهمية كبيرة وفي هذه الفترة المبكرة جدا التي تتناولها الآن بالدراسة ، كانت هناك

أفكار أخرى معينة قائمة فعلا ، وقد استمرت لها أهميتها البالغة في الفكر الصينى ، وكانت احداها تهتم اهتماما كبيرا بالأسرة ونجد في هذه الفترة المبكرة معلومات واضحة عن الحضارة الصينية ، كما أن الاهتمام البالغ بالأسرة يبدو واضحا ونقرأ في كتاب الشعرمن بين الناس في العالم كافة لا يعادل الإخوة أحد فالاخوة يتشاجرون بين الجدران ولكنهم يقفون متحدين ضد اهانة من الخارج بينما خير الأصدقاء برغم كثرتهم ، لن يحاربوا من أجلك

ويعطي الكتاب الغربيون في بعض الأحيان انطباعا عن أن كنفوشيوس قد ابتدع تقريبا طاعة الآباء ، أو على الأقل أكدها تأكيدا لم يكن له نظير من قبل ، ولكن في فقرة كتبت منذ أمد طويل قبل عهد كنفوشيوس في كتاب الشعر، تقول : لا يمكن الاعتماد على أي انسان مثل اعتمادنا على الأب ، ولا يمكن الاعتماد على أحد مثل الاعتماد على الأم وحتى بداية عهد تشو نجد أنه قيل أن طاعة الآباء ليست عملا أخلاقيا فحسب، بل أيضا فرضا شرعيا وذكر بيان موجه إلى أحد ولاة تشو أن هناك مجرمين معينين أسوأ من القتلة ، ومن أمثلة ذلك والابن الذي لا يعامل أباه باحترام بل ويجرح قلب أبيه جرحا داميا ، والأب الذي لا يستطيع أن يرعى ابنه بل يكرهه ، والأخ الأصغر الذي لا يضع نصب عينيه الهدف السماوى الواضح ولا يحترم أخاه الأكبر ، والأخ الأكبر الذي ينسى اهتمامه الرقيق الذي يجب أن يحيط به أخاه الأصغر ويكون عدوا له ، وذكر البيان أن هؤلاء جميعهم مجرمون ويجب أن يعاقبوا بدون شفقة ولم يكن العمل الذي واجه حكام تشو بعد غزوهم بالعمل السهل ، ولم تكن مشكلتهم مشكلة نقص في الأراضي التي يحكمونها ولكنها كانت في النقص في الأساليب التي يحكمونها بها والوسيلة الوحيدة للاتصال هي عن طريق الطرق ، وكانت الطرق غير ممهدة وبرغم أنه كانت هنالك أساليب معينة للتبادل فانه لم يكن هناك وجود لنقود ملائمة بالمعنى المفهوم عندنا وبدون اتصالات ميسورة وبدون نقود ، استحال تقريبا الحكم المباشر على أراضي واسعة لقد فعل حكام تشو ما كاد يكون الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقوموا به ، لقد قسموا

أراضيهم على ولاتهم الذين كانت غالبيتهم من أقاربهم أو من رؤساء القبائل الأخرى التي ساعدتهم في الغزو لقد ترك لهؤلاء اللوردات الاقطاعيين الحرية في حكم أراضيهم المحلية كيفما شاءوا ما داموا يبقون على السلام ويدفعون الجزية المطلوبة للملك ويقودون جنودهم ليساعدوه حينما يكون في حاجة اليهم

وقد أدى هذا النظام الاقطاعي عمله في بادىء الأمر على أكمل وجه لقد كان أصحاب الالتزامات من ال تشو أكثر قليلا من قادة مدن الحاميات المسورة ، الذين كانوا يراقبون الشعوب المعادية التي فتحت بلادها حديثا ولقد كانوا في حاجة إلى تأييد ملك تشو وتأييد بعضهم بعضا واذا تمرد أفراد من الولاة عاقبهم الملك ، وفي الحالات القصوى ، كان يأخذ أراضيهم ويعطيها لغيرهم ومهما يكن الأمر فقد تبدل الوضع بعد بضعة أجيال ، ولم يعد حفدة السادة الاقطاعيين الأصليين غرباء بعد في أراضيهم ، واختفت إلى حد كبير عداوة شعوبهم السابقة لقد خلع الزمن القداسة على سلطانهم ، وكان فخرهم المحلى ومصلحتهم الذاتية قد جعلا غالبية رعاياهم موالين لهم ، ولقد قام السادة الاقطاعيون الأقوياء بضم أراضي جيرانهم الضعفاء ، وعندما حاول الملك أن يتدخل في هذا الاجراء ، قاوموه وشكل النبلاء الأحزاب والأحلاف التي تشاجرت فيما بينها ومع الملك : وأخيرا ، في سنة ٧٧١ قم انتهى هجوم قام به مثل هذا التحالف ، في اتفاقية مع قبائل بربرية معينة ، بوفاة الملك الحاكم لتشو ، وأقام خليفته في عاصمة في أقصى الشرق ولكن منذ هذا الوقت فصاعدا لم يكن ملوك تشو أكثر من لعب في أيدى أقوى الولاة وهكذا تركت الصين بدون أية حكومة مركزية فعالة ، وازدادت الحروب بين جماعات السادة الاقطاعيين اندلاعا وشراسة ، ولم تقم القبائل البربرية على الحدود بغزو الصين فحسب، بل كان الصينيون يستدعونها أحيانا لتكون حلفاء لهم ضد الصينيين الآخرين ، بل كان ملك تشو الذي لا يملك حولا ولا طولا يدعو القبائل البربرية أحيانا لتساعده على استعادة ميراثه ، ولكن كانت النتائج مشئومة إذ لو كان البرابرة قد تعاونوا تعاونا فعالا لكان هناك القليل من

الشك في انهم كانوا يكتسحون الصين حينذاك ، كما فعل أحيانا تحالف القبائل البربرية فيما بعد

وكان الخطر مسلما به ، وقد اتفق بوجه عام على أن الصين يجب أن يكون لها ملك قوى بدلا من ملوك تشو الصوريين لقد كان عظماء السادة الاقطاعيين متفقين على ذلك ، ولم يختلفوا الا على مسألة من منهم يستطيع أن يؤسس أسرة جديدة ، وكان لكل واحد منهم مرشح : هو نفسه ، وقد استلزم استقرار الأمر عدة قرون من الحرب كما ذهب بمئات آلاف لا يمكن حصرها من أرواح الصينيين

وفي أثناء ذلك استمرت عملية اللامركزية ، ولم يكن السادة الاقطاعيون لا يكترثون بأوامر الملك فحسب ، بل اغتصبوا سلطاته وكانوا يفعلون ما يشاءون وفي عدد من الولايات كان كبار الموظفين يعاملون السادة الزعماء بنفس الأسلوب ، ومن ثم كان الدوق ، على سبيل المثال ، في ولاية لو ، وهي موطن كنفوشيوس ، لا يزال يحكم حكما اسميا ولكن كانت كل سلطاته في يد ثلاثة من أقاربه كانوا هم الموظفين الرئيسيين في الولاية ولم يحكموا كما كانوا يريدون فحسب ، بل كانوا أحيانا يقتلون الورثة الذين سيرثون عرش الدوقية لكي يجلسوا على عرش غيرهم من الذين كانوا يفضلونهم وفي سنة ١١٧ قم عندما كان كنفوشيوس في الرابعة والثلاثين من عمره حاول الدوق الحاكم لولاية لو ، أن يثور على هؤلاء الموظفين المغتصبين ، ولكنه فشل فكان عليه أن يهرب من الولاية ويعيش بقية حياته في منفى ٠ ولم يكن السادة الاقطاعيون خاضعين لمثل هذه المعاملة فحسب بل كان موظفوهم المغتصبون بدورهم يفتك بهم من هم أدني منهم ومن ثم فعندما كان كنفوشيوس في السابعة والأربعين ، اذا بزعيم المغتصبين للسلطة من بين ضباط دوق , لو ، يهاجمه رئيس أتباعه الخصوصيين ويسجنه ويضطره لأن يقسم بطاعة مرءوسه الاسمى وقد حكم هذا الخادم الصلف ، الدولة بيد من حديد لعدة سنوات، وأخيرا قرر أن يغتال كل رؤسائه الاسميين من ضباط الدولة ويستولى على السلطة الاسمية إلى جانب السلطة الفعلية ، ولكن ظهرت عقبة في آخر دقيقة

أحبطت المؤامرة ، وكان على السفاح أن يهرب ولم تكن لو ، وحدها هي ضحية مثل هذه الفوضى ، بل كانت بعض الولايات أسوأ حالا وفي الجملة يمكن القول بأنه قل أن وجد في ذلك الوقت قانون ونظام لعدم وجود سلطة مركزية قوية لتنفيذهما ولما كان الملك لا حول له ولا قوة ، لذلك كانت الولايات تحارب بعضها بعضا حربا مستمرة وفي القرن السادس قبل الميلاد ، وهو القرن الذي ولد فيه كنفوشيوس ، كانت هناك أربع ولايات كبيرة ذات سطوة رفيعة الشأن ، على رقعة العالم الصينى ، وعدد من الولايات الصغرى في الوسط ، وقد جرت العادة على أن تلتقي الولايات الكبرى لتخوض معاركها على أرض الولايات الوسطى ، وكانت تقوم بذلك سنويا ، وفي بعض الأحيان ، لمدة عشرة أعوام متعاقبة بدون انقطاع ٠

أما في داخل الولايات فنظرا لأن كثيرين من الحكام كانوا ضعفاء ، فقد كانت معظم قبائل النبلاء القوية تحارب بعضها بعضا بنفس الطريقة ، وكانت بعض الولايات تقسم الى معسكرات مسلحة ، في حالة مستمرة في صورة قليلة أو كثيرة من الحصار وأخيرا ، كان الأفراد حتى بين العائلات ، يتشا جرون : الأمر الذي أدى بأتباعهم الشخصيين إلى أن صاروا في حالة يمكن وصفها أدق وصف بأنها حالة حروب خاصة ٠ واذا أخذنا في اعتبارنا حقيقة أن الصين ، حتى ذلك الوقت ، كانت من أعظم البلاد حضارة ، فقد كان وضعها سيئا حقا وكان يندر القول بأن أي فرد ، سواء كان في درجة رفيعة أو في أحط حالة ، ينعم بالأمن ، وان عامة الشعب يرثى لهم لقد كانوا الضحايا الفعليين للحرب ، وكانت هناك نتيجة واحدة للامركزية هي أن صغار الأرستوقراطيين حاولوا أن يقلدوا بذخ كبار النبلاء ، ولكى يقوموا بهذا الاجراء فرضوا ضرائب على الأهالي في قسوة بالغة واستغلوهم أكبر استغلال وجعلوهم يشتغلون في السخرة حتى ضعفت المحاصيل لعدة سنوات ومات الكثير منهم جوعا

ومن بعض الوجوه كان من المحتمل أن الأحوال كانت أحسن في السنوات الأولى لحكم أسرة تشو ، بعد غزوها للبلاد مباشرة وفي تلك الأيام لم يكن الارستوقراطيون في حاجة إلى استرضاء الناس فحسب ، بل كانوا أيضا يخضعون لنظام الأخلاق القبلية التي تطورت في وضع أبسط لقد كان على عامة الشعب أن يشتغلوا بجد ويتمتعوا بالقليل من رغد العيش ، ولكن كتاب الشعر يعطي انطباعا عن أن سادة الولايات الكبيرة كانوا يهتمون اهتماما مباشرا بأولئك الذين يفلحون الأرض ، في الوقت الذي أحس فيه الفلاحون بولاء ثابت تجاه سادتهم ، ولم تؤد زيادة الرغبة في الشئون الدنيوية إلى تقدم أخلاقي بل الى الانتكاس لقد شغل الأرستوقراطيون بالتنافس فيما بينهم على اظهار البذخ ، وبمحاربة بعضهم بعضا في حروب مستمرة وكانت تعقد الاتفاقيات تحت التهديد بالقوة وتنقض حالما توجد ذريعة لذلك ، ولكن ناقضى الاتفاقيات لم يقاسوا العقوبات الرهيبة التي كان من المفروض أن تنزلها بهم الأرواح ؛ وكان لابد من أن يقلل هذا الأمر من قدر الايمان بالدين ؛ لقد ساعدت ظروف الزمن بوجه عام على تدعيم مبدأ أن الأبله وحده هو الذي يبقى على كلمته أو يتعامل في أية صورة اللهم الا ما تمليه عليه مصلحته الذاتية المنطوية على الأنانية

لقد أدى النظام الإقطاعي في البداية إلى الحكومة الصالحة لقد سمح للملك بأن يعين الرجال الأكفاء ليحكموا مختلف أجزاء المملكة وأن يطردهم اذا أساءوا حكمها ويبدو أنه حدث في الصين كما حدث بعد ذلك في أوربا ، أن الاقطاعيات لم تكن في أول أمرها وراثية ، فاذا اعتقد أن ابنا ما جدير بأن يحل محل أبيه في منصبه كان على الملك أن يعينه من جديد ، ولكن نظرا لأن العائلات النبيلة صارت أقوى نفوذا وصار الملك أضعف شأنا ، لذلك فقد اضطرته الظروف الى أن يثبت ورثة أتباعه تلقائيا ، ثم استغني في النهاية عن كل هذا ، ولكن لما انتشر هذا الوضع وطبق حتى في الوظائف الدنيا ، صارت الصين يحكمها موظفون ورثوا وظائفهم في سهولة ويسر ، ولم يعد لديهم ، على وجه العموم ، ميل أو

اهتمام بأعمالهم لقد كان بعضهم يعتبرون وظائفهم ليست الا مجرد رمز لحقهم في السطوة والامتيازات وفي الترف وكانت النتيجة الحتمية سوء ادارة الحكومة

ولقد أدرك أشخاص كثيرون هذا الأمر ، بل أدرك الأرستوقراطيون أنفسهم أن كثيرين من طبقتهم قد صاروا مجرد عالة على المجتمع ؛ وكان هذا أمرا من السهل على حكام الولايات ، بصورة خاصة ، أن يشاهدوه لأنهم كانوا ضحية للنبلاء ، ويكاد يكون وضعهم في ذلك مماثلا لوضع الشعب اذ كان كبار الموظفين لدى حاكم الولاية هم تابعوه اسميا وكانوا مسئولين عن مختلف أعمال الحكومة ، ولكنهم بوجه عام لم يهملوا واجباتهم فحسب بل استغلوا أيضا جيوشهم الخاصة للحط من قدر سلطة الحاكم ان لم يكن اغتصابها

وفي سنة 535 ق م عندما كان كنفوشيوس في السادسة عشرة من عمره حاول دوق احدى الولايات الصغيرة أن يصحح هذا الوضع ، فبدلا من أن يسند الوظائف الرئيسية في حكومته إلى أقاربه من النبلاء ، الذين كان من عادتهم بلا شك أن يسندوها إلى أبنائهم كما لو كانت عقارا متوارثا عن عائلاتهم ، حرم هذا الدوق أقاربه من هذه الوظائف وأحل محلهم رجالا من ولايات أخرى ليقوموا بأعمالهم ، فأثار هذا الاجراء ثائرة أقاربه حتى أنهم جمعوا كلمتهم واغتالوا الدوق ووضعوا حدا لانتشار هذه العادة وحرمانهم من امتيازاتهم من كان هؤلاء الأشخاص من الولايات الأخرى ، الذين أراد الدوق السيء الحظ أن يستخدمهم كموظفيه ؟ لم يذكر لنا التاريخ ولكن من السهل أن نحدس من هم انهم يندر أن يكونوا من عامة الشعب اذ أن قلة من عامة الشعب قد عرفوا القراءة والكتابة فضلا عن طريقة ممارسة الحكم ، ومن المحتمل أن كان هؤلاء الأشخاص ممن ينتمون الى الطبقة المتكاثرة من حفدة النبلاء الفقراء لقد مارس الأرستوقراطيون تعدد الأزواج على نطاق واسع ، وكنتيجة لذلك صار هناك عدد كبير من الأبناء الصغار كان من المستحيل استحالة تامة أن يزود كل منهم بالاقطاعيات والوظائف ، ومن ثم كان عدد كبير من الأشخاص من أبناء الأرستوقراطيين قد

تركوا وحدهم ليعولوا أنفسهم وصار بعضهم جنودا مرتزقة وصار البعض الآخر يمارسون الأعمال الدنيا في البلاط، وانتقل بعضهم من ولاية إلى ولاية أخرى سعيا وراء وظائف أحسن ؛ ومن المحتمل أن يكون اناس على هذه الشاكلة قد حاول الدوق ، الذي نحن بصدد الحديث عنه، أن يستخدمهم كموظفين عنده ومن وجهة نظره ربما كانت لهم ميزتان : اذ أنه لما كان يقوم بتعيينهم كان في استطاعته أن يستغنى عنهم ، فقد كان من المحتمل أن يكونوا أكثر ولاء له من النبلاء الذين كان لهم استقلالهم في سلطتهم وفضلا عن هذا كان المعقول افتراض ذلك ، فانه نتيجة للتنافس فيما بينهم فقد كان من المحتمل أن يكونوا أحسن حكما ولعلهم صاروا اكثر اهتماما بأداء واجبهم من غالبية الأرستوقراطيين الذين كانوا مجرد ورثة لمناصبهم لقد لعب هؤلاء المنبوذون من سلالة النبلاء دورا هاما في التاريخ لقد كونوا طبقة وسطا على صلة بعامة الشعب ، وكانوا على وعي بماسيهم ولكنها كانت طبقة متعلمة تستطيع أن تحي احتجاجا له فعاليته بينما لم يكن في استطاعة عامة الشعب أن تقوم بهذه المهمة وقد كان بعض هؤلاء الأشخاص ، في بداية الوقت الذي كان فيه كنفوشيوس ، في استطاعتهم أن يبلغوا أرقى المناصب وأن يحسنوا التأثير الفعال على أحداث زمانهم اننا نعرف أسماءهم ولكننا لا نعرف عنهم الا القليل ومع ذلك فقد أدرك واحد منهم أنه فشل فشلا ذريعا إلى حد بعيد في تحقيق ما كان يصبو اليه في حياته لقد كان رجلا من ذوي العقول الراجحة والمثل العليا السامية ، ونظرا لأنه رفض المساومة لم يقم واحد من حكام ذلك العصر باسناد أية وظيفة هامة له في حكوماتهم ولهذا السبب عاد للتدريس واضطر إلى أن يقضي وقته في تحسين المبادىء التي كان يعلمها لتلاميذه واتقانها ومن ثم ، فانه على الرغم من أنه فشل شخصيا ، فان مبادئه نجحت بعد وفاته في احداث تغييرات خطيرة في نظرية الحكومة في الصين وممارستها لعملها ، ولهذا السبب فاننا بعد مضي الفين وخمسمائة سنة على وفاته ، لا نعرف اسما من أسماء الصينيين خيرا من اسم كنفوشيوس كان كنفوشيوس

واحدا من الرجال القليلين الذين أثروا تأثيرا عميقا في التاريخ البشري بقوة مواهبهم الشخصية والعقلية وبقوة انجازاتهم ولا يمكن تفسير حقيقة ظهور مثل هؤلاء الرجال على المسرح تفسيرا كاملا ، ولكن بفحص ظروف حياتهم نستطيع على الأقل أن نزيد من قدرتنا على فهمهم ومما يصعب محاولتنا فهم كنفوشيوس هو ضخامة الأساطير والأحاديث المنقولة التي تجمعت حول اسمه طوال القرون حتى صار من الصعب أن تعرف الحقيقة وتنبعث مثل هذه التعقيدات ، ان لم نقل التحريفات ، عن عاملين اثنين مختلفين تمام الاختلاف ، فمن ناحية يلاحظ ان المؤمنين به رغبوا في أن يمجدوه ، ومن ثم قاموا بتلك الأعمال المخلصة مثل وضع تاريخ دقيق لتسلسل نسبه يرجعه إلى الأباطرة ومن ناحية أخرى فقد عمل أولئك الذين كانوا يرون أن مصالحهم مهددة من جانب هذا المفكر الثائر ، على احباط هجماته على الامتيازات الحصينة بتحريف وتمويه ما كان عليه أن يقوله ، وقد نجحوا في ذلك نجاحا جزئيا ، ومن ثم فان سبيلنا الآن الوحيد هو أن نتغاضى تماما عن القصة التقليدية عن حياته وعن فكره وأن نثق فقط في الأدلة القليلة التي يمكن انتزاعها من الوثائق التي يمكن اقامة الدليل على أنها قديمة ويمكن الاعتماد عليها

الباب الثانى
ظروف عصره

الحضارة الصينية في عصرها التاريخي المبكر

تدخل الصين عصرها التاريخي الصحيح بابتداء٣٥٦ قبل الميلاد التي خلفت أسرة تشو شانج، وتستكمل الحضارة الصينية معظم طابعها الذي تمتاز به، والذي كان جزء كبير منه موجودا بالفعل في أيام شانج، لكن أثناء عهد أسرة تشو تكامل ذلك الطابع وفي الحقيقة يمكننا القول بأن تشو كانت عهدا من العهود أكثر منها أسرة حاكمة ولم تكن الصين وقتذاك دولة متحدة؛ إذ تألفت من عدة دول متحاربة، متنابذة، تحارب إحداها الأخرى، لكنها دانت جميعها بالاحترام لبيت تشو ، وتقع عاصمته قرب مدينة سيان الحالية بمقاطعة شنسي واقتصر سلطان بيت تشو على سهل صغير في شمال الصين وحوض وما بعدها النهر الأصفر وعلى ضفاف هذا النهر ترعرعت الحضارة الصينية ومرت بهذه الأسرة فترة صعبة، وتعرضت لمتاعب فائقة في حكم البلاد، نظرا لجهلها نظم الحكم الصالحة المتحضرة، فبينما كانوا يجيدون أخذ الأراضي بالقتال،عجزوا عن المحافظة عليها عن طريق حكومة منظمة، ومن هنا بدأ حكم أسرة تشو في التمزق، وكادت هذه المتاعب تطيح بها، لولا أن أنقذها من الدمار، شخصية عظيمة عرفت في التاريخ الصيني باسم دوق تشو ، اضطلع بأمر الجيوش وعاقب كل أولئك الذين حاولوا أن يثوروا، فقضى بذلك على أسباب الفتنة، وأقر الأمن والنظام، وأجاد تنظيم أمور البلاد تنظيما عبقريا عن طريق حكومة منظمة أحسن تنظيم

ويعظم الصينيون دوق تشو باعتباره مؤسس التراث الكونفوشيوسي، بصرف النظر عن أن هذا الدوق قد عاش قبل كونفوشيوس بعدة قرون، بل اعتبره البعض أسمى مرتبة من كونفوشيوس ففي معترك الأحداث التي جرت في وما بعدها عهده، تشكلت آراء معينة كانت لها أهميتها الكبرى في التفكير الصيني منذ ذلك

الوقت إن أهم عمل قامت به أسرة تشو هو وضع نظم اجتماعية متكاملة ونظم سياسية ودينية وأخلاقية، استطاعوا في داخل حدودها أن يتمموا وينظموا الأساليب التي كانت موجودة فعلا في الصين، وقد ساعدهم على ذلك ما كانوا يتمتعون به من عزيمة لا تكل للحصول على القوة، ومن حب شديد للنظام، واحترام عميق للعمل المنظم الدقيق

عبادة الأرواح والكهانة:

اشتملت العقيدة الصينية، منذ أقدم العصور، على عناصر مختلفة وأساطير شعبية متباينة فقد اعتقد الصينيون، شأنهم في هذا شأن غيرهم من شعوب بلاد العالم الأخرى، بخضوع الظواهر الطبيعية والأوضاع البشرية لسيطرة القوى الخارقة للطبيعة، ومن هنا كانت عبادتهم لهذه القوى الغامضة والأرواح الخفية الكامنة في جميع الأنحاء والتي كانوا يشاهدون آثارها دون أن يدركوا حقيقتها وقد تألفت هذه الأرواح المعبودة من نوعين :أرواح الموتى من آباء وأجداد، وكذلك أرواح كبار الحكماء والأبطال الوطنيين

وأرواح القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والكواكب والمطر والريح والرعد وتنقسم هذه الأرواح، ذات الأهمية الخاصة، بنوعيها من حيث المكان إلى قسمين : الأرواح السماوية، وهي جميع الكواكب والنجوم، والأرواح الأرضية مثل الأنهار والأشجارالجبال والتلال والأفاعي وكذلك أرواح الموتى من الآباء والأجداد تندرج في هذا القسم الثاني ومعنى هذا أن أرواح الموتى كانت تعبد إلى جانب آلهة الطبيعة مثل التلال والأنهار وغيرها ولم يكن الموتى وحدهم هم الذين يسألون عن الهداية والإرشاد في مسائل السلوك، بل حتى تكفل كان يتوسل إلى قوتهم الداخلية مانا خصوبة الرجال والنساء والمحاصيل والحيوانات آمن الصينيون، ولا يزالون حتى اليوم يؤمنون، بأن هناك أرواحا خيرة تسهر على فصول السنة، وعلى النشاط الزراعي وعلى حماية المنازل ورعاية أفراد الأسر

ولما كانت هذه الأرواح بنوعيها، السماوي والأرضي هي التي تحكم الكون، وتسير كل حركاته، وتسبغ على البشرية السعادة، كما أن في استطاعتها أن تتلقى القرابين، وأن تندمج في الكائنات البشرية، فقد حرص الصينيون على أن يردوا عداوة هذه القوى والأرواح الخفية، وأن يستعينوا عليها بالأدعية والرقى السحرية، فراحوا يستأجرون السحرة والعرافين والمتنبئين من ذوي المواهب ليكشفوا لهم عن بارندر :المعتقدات الدينية لدى الشعوب،المستقبل باستخدام أصداف السلاحف، وملاحظة الظواهر الطبيعية كحركات النجوم مثلا، وهؤلاء هم الكهان إننا إذا ألقينا نظرة على القسم المسمى الفكرة العظمى في كتاب التاريخ لظهر لنا أن حكام ١١٢٣ ق م –١٧٦٥ أسرة شانج وهي الأسرة التي يبتدئ بها التاريخ المسجل للصين والتي استمر حكمها من القرن السادس عشر حتى القرن الحادي عشر قبل الميلاد -كانوا يهتمون اهتماما كبيرا بالتنجيم، وهو أهم أقسام الكهانة، وأنهم مارسوه بطرق متعددة ومن بين تلك الطرق انهم كانوا يعرضون قطعة من ذيل غطاء السلحفاة للحرارة، ويجيبون على سؤال السائل من دراسة التشققات التي تظهر فيها وفي طريقة أخرى كانوا يحفرون عددا من الحفرات البيضاوية الصغيرة في أحد جوانب قطعة من العظم، وكانت في العادة من عظم كتف شاه، ثم يحمون قضيبا معدنيا في النار حتى يحمر ويضعونه في تلك الحفرة، ثم يجيبون على سؤال السائل من تفسيرهم للتشققات التي تظهر على الجانب الآخر لقطعة العظام وكان التنجيم بواسطة عظام الكتف منتشرا في المناطق الشمالية من أوراسيا وفي أمريكا، أما التنجيم بوساطة غطاء السلحفاة فيلوح أنه من أصل جنوبي وكان حكام شانج يستوردون ويربون السلحفاوات التي يأتون بها من الجنوب حتى تكون عظام غطاءاتها من النوع المطلوب وفي طريقة التنجيم بوساطة عظام الكتف كان المنجمون يحفرون على العظمة نصوص الأسئلة المطلوب الإجابة عليها قبل تعريضها للنار بسبب الاعتقاد بأن الآلهة صماء، وأنها لا تفهم المطالب التي ترفع إليها إلا إذا كانت مدونة كتابة وكانت الأسئلة تتعلق قبل

أي أمر آخر بشئون القصر الملكي، يسألون عن الأوقات المناسبة لتأدية الشعائر، والنتائج المحتملة للحروب التي يقومون بها وعما ينتظر المحاصيل وعلى إحدى العظام نقرأ شيئًا يدعو إلى التسلية ويدلنا على تصرف المنجمين فقد كان السؤال كما يأتي: إذا خرج الملك للصيد في التلال الشرقية في يوم كذا فهل ستسقط الأمطار؟ وإلى جانب التشققات التي دلت على الجواب بأنها ستمطر، نجدهم أضافوا كتابة الجملة الآتية :وقد أمطرت حًقا

إن طبيعة الأسئلة المطروحة، في هذا الأمر، تعطينا صورة لمجتمع ينظمه، في كل جانب من جوانب الحياة اليومية، التنبؤ بالغيب وتحكمه اعتبارات الحظ الحسن أو الفأل السيئ، كما تؤكد إيمان قدماء الصينيين بوجود رباط وثيق بين أفعال الأرواح وتصرفات البشر، وتأثير متبادل بين الأشياء في الكون والشئون البشرية؛ مما أوجب عليهم الاستعانة بكافة ضروب الكهانة

وتقسم المراجع الصينية فنون الكهانة ستة أقسام: الأول :التنجيم – ويعتبر أهمها الثاني :التقويم -والغاية منه تعيين الفصول الأربعة بغية ضبط أوقات الاعتداليين والانقلابين، وملاحظة موافقة فترات الشمس والقمر والكواكب الخمسة لتتيسر دراسة أحوال البرد والحر، والحياة والموت

الثالث :يتصل بالعناصر الخمسة :التراب، الخشب، المعدن، النار، الماء

الرابع :يتعلق بأوراق نبات العرافة وصدفة السلحفاة ويقصد بنبات العرافة زهرة القنديل وتمتاز بكثرة أوراقها فكان طالب معرفة حظه يقطع أوراق الزهرة ورقة ورقة، وفي الورقة الأخيرة يتمثل الرد على رغبته أما بالنسبة لصدفة السلحفاة، فكان العراف يثقب حفرة فيها، وبتعريضها للحرارة،تظهر عدة شروخ يفسرها العراف على أنها إجابة عن سؤاله الخامس :يتضمن الأحلام السادس :يتألف من طريقة الأشكال ومدارها قياس وإحصاء عظام الناس والحيوانات المستأنسة الستة: الحصان، الثور، الخنزير، الغنم، الكلب، الدجاج وكانت هذه الطريقة تستخدم عند بناء سور مدينة، أو منزل، أو كوخ وإذا كان الصينيون قد غالوا في تقديس أرواح

الأجداد إلى حد لم يعرف له نظير عند الأمم الغابرة، فإنهم من ناحية أخرى قد أغرقوا في عبادة الأرض وتقديسها حتى كانوا يطلقون عليها اسم القوة المحسنة التي تتسلم البذورلتردها ثمارا مضاعفة وذلك بالنظر إلى كون الشعب الصيني شعبا زراعيا في المرتبة الأولى، وكانت الحاصلات الصينية وطرق الزارعة، على الأرجح، أحسن شيء من نوعها في العالم، فضلا عن أن الصينيين قد وضعوا الاستغلال والاستنبات في المنزلة الأولى في الحياة على أنه برغم ذلك كله آمن الصينيون بوجود حاكم أعلى، له كل السلطان على الأرض وما فيها، هو السماء سيد كل الآلهة لقد رأى أو شانج تي الصينيون في السماء وحدها السلطان الأعلى اللا محدود القوة، إذ تمسك بيدها الكون بأسره، وتقضي بتعاقب الفصول في مواقيتها، وتأمر بدورة الموت والتجدد، وتكفل خصوبة الرجال والنساء والحيوانات والمحاصيل وحتى قوس قزح الذي يظهر بعد سقوط المطر، يبدو هو الآخر في السماء وكان الصينيون يعتقدون أن السماء نفسها كائن حي متحرك بالإرادة، وأن الأرض وجميع ما عليها من :خصوبة وتناسل ومظاهر أخرى ليست إلا رمزا تمثيليا من رموزالسماء ومظهرا لها، بحيث يستحيل تصور فصلها عنها، كما تستحيل تثنيتهما في الحقيقة؛ لأن كل واحدة منهما هي الأخرى، وهي أصل جميع الموجودات في نفس الوقت،وهذا كله يؤكد اعتقاد الصينيين بالوحدة المطلقة أو مذهب وحدة الوجود بما يدل على سموهم الفكري ومذهب الصينيين هذا في الوحدة يخالف ما كانت عليه بعض الشعوب الأخرى من حيث الاعتقاد بأن الكائنات ظهرت في الوجود الخارجي وتناسلت من زواج السماء مع الأرض ويصرح الصينيون بأن جميع الموجودات قد نشأت نتيجة حركات الوحدة المطلقة بمعنى أن هذه الوحدة هي مردها ومرجعها من غير استثناء، وأنها أي الموجودات حية كانت أو جامدة نتائج التغير والتحول الدائمين والناشئين من الحركة وبهذا سبق الصينيون في رؤيتهم الفلسفية هذه الفلاسفة اليونان وعلى رأسهم هيراقليطس من حيث اعتبار الحركة والتغير المستمرين هما الجوهر الأقوى للوجود

ولم يكن الكون الأوحد المؤلف، عند الصينيين، من السماء والأرض ماديا محضا وإنما كان طبيعيا أي مادة مشتملة على روح، وأن الجانب الروحي له الدور الأكبر في احتفاظ الجانب المادي في الطبيعة بنظامه كاملا متناسقًا ويحتل الإنسان في هذا الكون الأوحد أو الوحدة الكونية مكانًا متميزا بالنظر إلى اشتماله على الروح من بين جميع الكائنات وقد ورد في أحد كتبهم القديمة :إن السماء والأرض هما أبو الكائنات جميعها، وإن الإنسان من بين جميع الكائنات هو وحده الموهوب حَقا ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن عبادة السماء أو شانج – تي لم تكن من العبادات الشائعة بين العامة، بل هي من العبادات الخاصة التي كانت وقًفا على الحكماء والملوك خاصة الأمراء وعلماء كبار رجال الدولة، ولا يجوز بأي حال كشف أسرارها أمام العامة البسطاء الذين تنحصر عقيدتهم الساذجة في عبادة الأجداد وغيرهم من الموتى ولقد اشتملت عبادة السماء أو هذه العقيدة الخاصة،إلى جانب القيام بالطقوس الدينية،على التفكير العميق حول الكائن الحي وموقعه من الكون، وعلى تحليلات للقوى الطبيعية التي كانوا يشاهدون آثارها سواء في السماء أو في الأرض، ومن هنا كان من الواجب تحريم هذه العقيدة على العامة تحريما قاسيا حتى لا يساء فهمها، وهذا هو مضمون فكرة المضنون به على غير أهله : وفي هذا يقول أحد حكماء الصين وهو لاو – تسو كما أنه من غير الممكن إبعاد الأسماك عن الماء دون أن تموت، كذلك من المستحيل أن تكشف أسرار الدولة أمام العامة دون أن تفسد الحال وتشير كلمة السماء في التراث الصيني إلى معانٍ مختلفة منها المادي، أي ما يقابل الأرض، والمعنوي المتضمن معنى السمو والرفعة وتسامي الشأن كقولنا الإمبراطور العلوي، والديني الذي يشير إلى معنى القضاء والقدر، والوجود الطبيعي، والأخلاقي الذي يدل على مبدأراقٍ سامٍ في علوه وارتفاعه إلى عنان السماء وقد تطور التفكير الصيني، بمرور الأيام، وأخذ يتحرر تدريجيا من إسار العرافة والكهانة، وقيود السحر:الأرواح، وهذا ما نطالعه في الأحداث الصينية - ذكرت السجلات -تحت أحداث عام ٦٦٢ قبل

الميلاد -أن أمور الدولة تزدهر وقتما ينصت الحكام إلى صوت الشعب، فإذا استمعوا إلى الأرواح فسدت الأمور -وتحت عام ٥٥٤ قبل الميلاد، قالت :طريق السماء طويل، في حين أن طريق الإنسان قريب المنال لكن لن يمكننا بلوغ السماء، إذ لا سبيل إليها وتحت عام ٥٠٩ قبل الميلاد، ذكرت أن مملكة هسيه تلجأ إلى الشعب، في حين تستعين مملكة سونج بالأرواح وعلّقت على ذلك بقولها :إن إساءة مملكة سونج بالغة

الدين والميتافيزيقا ماوراء الطبيعة

شهد العصر الذي ظهر فيه كونفوشيوس انحلالا خلقيا وانحطا طا دينيا، حيث شاع الإيمان بالخرافات وممارسة الشعوذة،واتسم برهبة الناس من خوارق الطبيعة،وانتشر الإيمان بالكهانة والسحر والطيرة، وزاد اعتقاد الناس بقدرة أرواح الموتى على التحكم في مصائر الأحياء، كما كان الفزع ينتابهم عند رؤية الكسوف الخسوف وقد شهد هذا العصر، أيضا، ظهور العديد من الأفكار والاتجاهات المتناقضة؛ إذ نادى بعض المفكرين مثل لاو – تسو بضرورة العودة إلى حياة الطبيعة، وشوانجتسي ونادى البعض الآخر بإعادة تقسيم الثروات، ونادى فريق بالشيوعية، ودعا فريق آخر على رأسه موتسي إلى حياة البساطة والتقشف، وشاع الشك الموغل والتلاعب بالألفاظ عند الآخرين وقد حاول مفكرو هذا العصر علاج هذا الانحلال والفساد، ولكن بدون جدوى ففي محيط كهذا، تميز بشيوع بلبلة الفكر وانحلال الأخلاق وانحطاط الدين، آثر كونفوشيوس صرف العقول عن المسائل الفائقة للطبيعة، والغيبيات، وأعطى الأولوية لمشكلات المجتمع البشري والحكومة الإنسانية والرفاهية والسعادة، كما ارتد إلى الماضي عاملا على بعث تراثه القديم، وإعادة تنظيم أفكاره القديمة، والسير على هدي قواعده ومبادئه ولم يكن كونفوشيوس في كل آرائه، دينية كانت أم سياسية أخلاقية، مبتكرا أصيلا، بل كان مجرد ناقل عن السابقين وفي ذلك يقول :إني راوية غير منشيء،ومصدق السلف محبه ولذا أشبه نفسي مجترئًا بصالحنا القديم ولقد أرجع كونفوشيوس

الانحطاط الديني والانحلال الخلقي والفقر المادي لعصره إلى إهمال الملوك والأمراء والمسئولين للتربية والتعليم، وتنكبهم السبل والطقوس الدينية القويمة وإهمالهم لها، وإلى أنهم يزاولونها بطريقة خاطئة

ويرى، في مقابل ذلك، أن الممارسة الحسنة للطقوس والشعائر هي أكبر دليل على نهضة المجتمع وتقدمه، ومنبع رقيه الروحي واستنارته

صحيح أن كونفوشيوس كان يعتنق المفاهيم الدينية التقليدية الصحيحة، وكان يؤمن بعبادة السماء والأرواح، وكانت عبادة أرواح الآباء والأجداد، وتقديم القرابين لها واقعا أساسيا وكان دائم النصح لمريديه وأتباعه بضرورة ممارسة الطقوس والشعائر ممارسة صحيحة، إلا أنه رغ ما عن هذا، ان يحجم، كما يشير إلى ذلك كتاب الحوار أو المختارات كما تشيع تسميته بذلك عند الكثيرين، عن مناقشة الموضوعات الدينية مثل الملائكة والكائنات الروحية والقضاء والقدر، مما دفع شراحه المحدثين إلى ضمه إلى طائفة الشكاك أو اللاأدريين، بل ذهب بعضهم إلى اعتباره من الملحدين، بينما ذهب البعض الآخر إلى القول بأن شجاعته لم تسعفه لتوضيح حقيقة آرائه لأتباعه ومريديه لسبب أو لآخرفحين سأله أحد تلاميذه ذات مرة عن واجب الإنسان إزاء أرواح الراحلين أجابه :إذا كنت عاجزا عن أداء واجبك إزاء الأحياء، فكيف يمكنك أن تؤدي واجبك إزاء الأموات وعندما سئل، في مناسبة أخرى، عن طبيعة الموت ذاته، أجاب :إذا كنت لا تفهم الحياة، فكيف يتأتى لك أن تفهم الموت وسأله أحد تلاميذه مرة :هل لدى الأموات علم بشيء أو هل هم بغير علم؟ رفض أن يجيب جوابا واضحا صريحا

ولما سأله تلميذ من تلاميذه عن حقيقة الحكمة قال له :إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها، أمكن أن تسمي هذه حكمة لقد آلى على نفسه أن يصرف جهود تلاميذه إلى الاهتمام بشئون الإنسان والمجتمع وتنظيم الدولة، وفهم حقيقة الحياة، والانصراف عن الانشغال بموضوعات الأرواح والحياة الأخرى وتأسيسا على هذا الرأي، فإن

الحكيم هو الذي يرفض حياة العزلة والتخلي عن العالم، ومما قاله في ذلك :إنني لا أستطيع أن أسير مع أسراب الطيور وقطعان الحيوانات، وإذا لم أنضم إلى البشر فإلى من يمكن أن أنضم؟وإذا لم يكن للحكم الصائب أن يسود العالم، فلا ينبغي لي أن أشارك في إصلاحه

فالحكمة بتعبير آخر هي نهوض الإنسان بواجباته نحو البشر، مع إجلال الأرواح والآلهة إن جوهر الفكر السليم، فيما يرى ذلك كونفوشيوس،هو البحث عن الوحدة الشاملة فيما بين ظواهر الكون المختلفة، والانسجام والوئام والألفة بين العالمين السماوي والأرضي :وكل ما كان كونفوشيوس يرضى أن يقره من البحوث فيما وراء الطبيعة هو البحث عما بين الظواهر المختلفة جميعها من وحدة، وبذل الجهد لمعرفة ما يوجد من تناغم وانسجام بين قواعد السلوك الحسن واطراد النظم الطبيعية يتحدث كونفوشيوس، في فقرات عديدة في كتاب الحوار أو المنتخبات، عن السماء، معبود الصين الرئيسي، والسماء، عند قدماء الصينيين، اسم مشترك بين القبة الزرقاء المحيطة بالأرض وبين الإله، وأسموها في الكتب القديمة بالملك أو الملك العلي، واعتقدوا أن الملك العلي هي عليم قدير ، يصرف السماوات والأرض وما بينهما، وتنفذ مشيئته في النفوس كما تنفذ في الكائنات أما عند كونفوشيوس، فيشير مصطلح السماء إلى قوة كونية معنوية غامضة لا تقهر، وهو بهذا يرفض النظر إليها باعتبارها كائًنا بشريا، بل يشير إليها، في موضع آخر،باعتبارها كيانًا عظي ما يتمتع بالإرادة القاهرة وقدرة الإبادة، ويتميز بالغائية ويخضع كل شيء في الكون لمشيئة السماء، ويجري مجراها كالفصول والكائنات والنفوس حتى الثورة والثقة، فكل هذا يتبع مشيئة السماء القادرة على كل شيء، وقد استوجب هذا أن يعمل الإنسان وفق مشيئة السماء أو كما يسميها بالعناية الربانية الهادية كما أشاد بكفاح الأفراد وجهادهم في سبيل الخير، وأبدى رجاءه في أن تعين السماء أولئك الذين يعينون أنفهسم ولكن كونفوشيوس أظهر،من ناحية أخرى تحسره لأن السماء لا يعتمد عليها، بدليل أن الأشرار كثي را ما ينجحون

ويوفقون ويزدادون غنى وثروة، في حين تبوء جهود الأخيار بالفشل أحيانًا ورغما عن ذلك، فقد أمدته فكرة السماء بالشعور بأن هناك في مكان ما من الكون، قوة تقف إلى جانب الإنسان، الذي يكافح وحيدا من أجل الحق وبهذا يؤكد كونفوشيوس مشيئة السماء، هذا الكيان الفائق، وقدرتها العظيمة التي تقف دائ ما إلى جانب الحق، وتنصر الخير؛ إذ هي دائ ما في صالحه

وقد تخيل كونفوشيوس نفسه بأنه مبعوث السماء، وأنها عهدت إليه رسالة القضاء على الشر، وفوضته لكي يقوم بدور الملك الفيلسوف، وأن يديم طريقه على الأرض، وهو نفس الدور الذي سيتحدث عنه فيما بعد ذلك أفلاطون في محاورة الجمهورية، والذي عبر عنه بقوله: ما لم يتولَ الفلاسفة الحكم في الدول، أو يتحول من نسميهم حكا ما إلى فلاسفة حقيقيين، وما لم نرَ القدرة السياسية تتحد بالفلسفة فلن تنتهي الشرور من الدول، بل من الجنس البشري وهناك مصطلح آخر، عند كونفوشيوس، يرتبط الذي ، بمصطلح السماء، هو مصطلح القدرالمنهج يشير إلى معنيين :إما أمرا، وإما قدرا، وهذا يتوقف على علاقة المنهج القدر بالسماء أو انفصاله عنها فعندما يظهر القدر مرتبطا بالسماء، فإنه يسمى أمر السماء أو مشيئة السماء، أما حين يظهر القدر منفردا، منفصلا عن السماء، فإنه يعني القدر أو المصير بشكل عام، فالقدر عنده هو ضرورة غامضة غير واضحة، تتجاوز إدراك البشر، وقدرتهم على فهمه أو التحكم فيه وقد قال عندما اشتد المرض بأحد أتباعه :إن ذلك سيطيح بحياته إذن إنه القدرأن يصاب مثل هذا الرجل بمثل هذا الداء وقال أيضا عن حتمية القدر :عندما يجب على الحقيقة أن تذيع،وعندما يجب أن تنحرف، فإنه القدر وكل هذا يشير إلى شيوع الاعتقاد بالقضاء والقدر عند الصينيين وللقرابين، عنده دلالة عظمى؛ إذ تؤكد الروابط الروحية بين الأفراد بعضهم وبعض من ناحية، وبينهم وبين أرواح الأجداد والآباء من ناحية أخرى، وهذا من شأنه أن ينزل الأرواح الخ□يرة من السماء لكي تتحد بأرواح الأرض، فيعم الخير والبركة وقد ذم كونفوشيوس عادة تقديم القرابين

الشائعة في عصره؛ إذ عدها صفقة مبادلة، يضحي صاحبها بالكثير جدا من المطالب والسلع للأسلاف والأرواح الأخرى، برجاء تلقي قدر أكبر من النعم والبركات، وأوجب في نفس الوقت، القيام بالطقوس وشعائر الأضحية، وتقديم القرابين لأرواح الأسلاف إذا كانت بعيدة عن روح المقايضة، وكان الإخلاص جوهرها إن القرابين، كما يرى، يجب أن تقدم بنفس الروح التي تقدم بها الهدايا إلى الأحياء، دون انتظار أن يحصل الإنسان على شيء من ورائها، كتوقع الحصول على منفعة أكبر أو دفع مضرة أو درء بلاء ومن هنا رفض الاعتقاد الشائع بأن الأرواح تنعم بالبركات على من ترضى عنه، وكان يفضل أن يحس المشيعون، في الجنائز وشعائر الحزن، بالحزن الحقيقي عن أن يكونوا مهذبين تمام التهذيب في كل ومن معبودات الدين الكونفوشيوسي، قوى الكون الطبيعية مثل الشمس والقمر والنجوم والكواكب الأخرى والسحاب والمطر والجبال والأنهار وما شاكلها من الكائنات، عبدها الصينيون واستعانوا بها في تيسير أمور حياتهم إذا كانت عبادة السماء وتقديم القرابين إليها، مخصوصة بالملك وحده؛ لأنه ابن السماء فإن عبادة الأرض والجبال والأنهار مخصوصة بالأمراء وحدهم التي تقدم في حالة عبادة السماء تختلف عن تلك التي تقدم إلى قوى الكون الطبيعية مثل الأرض أما عن موقفه من الصلاة، فنادرا ما كان يبحث فيها، ويملح إليها قائلا : إن من يتم السماء لن يجد إنسانًا يرجوه ولم يلجأ، طوال حياته، إلى طلب أي شئ عن طريق الصلاة ويرى أن الآلهة تحمي الإنسان، دون حاجة إلى العبادة، إذا حرص على أن يكون قلبه على درب الحقيقة، وطاهرا نقيا ويرى كونفوشيوس، أن الموت قدر، كتِب على الأحياء منذ الأزل وهو يتقبل الموت بلا وجل وليست له في نظره دلالة معينة أو مغزى رئيسي أ ما الجنة والنار، فلا يعتقد فيهما، وإنما يعتقد الجزاء في الدنيا، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وهو في هذا لا يختلف عن بقية الصينيين، إذ إن هذا هو معتقدهم جميعا منذ قديم الزمان ولا يسأل عن مصير الأرواح بعد خروجها من الأجساد،وإنما يعتقد في أن الأرواح تبقى في الدنيا،

وتعيش مع أفراد أسرتها في الغيب، ويذهب إلى القول بأن الأرواح تسر بأنواع الموسيقى إلى جانب تقديم القرابين لها، وفي هذا السبيل يصرف الصينيون أموالا كثيرة إن الموت، في نظر كونفوشيوس، ليس شرا، وهو لا يخيف أحدا، ويرى أن المرء عندما يشرف على الموت تصبح أقواله حكيمة وعندما سأله أحد مريديه عن حقيقة شعور الأموات بالهدايا التي تقدم لهم، كانت إجابته غير محددة، إذ رأى أنه إذا أجاب بنعم، فإن الأبناء الصالحين الأخيار سيقطعون عروقهم تفجعا على أمواتهم، وإذا أجاب بلا، فإن الأبناء الطالحين العاقين قد يهملون واجباتهم كل الإهمال أ ما عن الفكرة الصينية القديمة التي مدارها أن الملك ابن السماء، فلم يعالجها كونفوشيوس معالجة مباشرة، إذ شاع الاعتقاد بين الصينيين بأن ملوك الصين القديمة والحكام الإقطاعيين يحكمون كمفوضين من لسماء، ومن هنا لا يجوز الخروج عليهم نظرا لما يتمتعون به من تفويض سماوي وامتيازات أرستقراطية وإذا كان كونفوشيوس قد امتنع عن مهاجمة هذه الفكرة التقليدية، إلا أنه اشترط في الحاكم الصالح توافر شروط العلم والحكمة ورجاحة العقل والعدالة والخلق الصالح، دون نظر إلى منبته، إلى درجة أن توقع أن يلي العرش أحد أتباعه من ذوي الأصل البسيط المتواضع وعلى الرغم من قوة نزعته منحاه الدينية، إلا أنه صدف عن اتخاذ معتقداته الدينية أسا سا لفكره الإنساني العميق، واعتبر الحواس الملاحظة والمشاهدة والتحليل، مصدرين هامين من مصادر المعرفة وإدراك الحقائق، ومما قاله في هذا الصدد :على المرء أن يسمع الكثير وأن يدرك الجانب المشكوك فيه، ويتكلم بحذر فيما يتصل بالباقي انظر كثي را، لكن لا تهتم بالمعنى غير الواضح، وتصرف بحكمة فيما يتعلق بالبقية ثم إنه لم يشر من قريب أو من بعيد، إلى إدراك الحقيقة عن طريق الإلهام أو الحدس الإدراك المباشر والذي هو أشبه ما يكون بالومضة السريعة المفاجئة، بل نجده، على العكس من ذلك، يقرر في صراحة، أن التأمل وحده لا يؤدي إلى الحكمة، بل الواجب: أن تسمع الكثير، وتختار ما هو صالح وتتبعه، وأن ترى الكثير وتتذكره

، فهذه هي الخطوات التي نصل عن طريقهاإلى الإدراك السليم وقد أضفى كونفوشيوس على أفكاره الدينية وازعا أخلاقيا، بعد أن كان الباعث المحرك لهذه الأفكار هو التحكم في القوى الطبيعية عن طريق الطقوس والشعائر لضمان حسن الطالع، وتجنب الحظ السيء ويرى أن خدمة البشر هي الطريق الطبيعي لخدمة الآلهة ومن هنا أقبل على دراسة المشكلات الإنسانية، وركز على علاقة الإنسان برفاقه البشر، ونأى بالأخلاقيات عن الميتافيزيقا، وذلك هو جوهر تعاليمه الإنسانية

مصادر الفلسفة الصينية

يتألف الفكر الصيني – قبل عهد كونفوشيوس – من خمسة كتب إنسانية تسمى : وو – كينج استخدمها حكيم الصين الأول لتعليم مريديه وتثقيفهم الثقافة الإنسانية المتوازنة، وهي :الأغاني – التاريخ – الطقوس – حوليات الربيع والخريف – التغيرات يُضاف إلى هذه المؤلفات الخمسة، التقاليد والعادات الدينية التي ظلت - بفضل العزلة– كما كانت منذ آلاف السنين، مما يعطينا صورة أمينة لما كان عليه التراث الصيني منذ أقدم العصور ولكل مؤلف من هذه المؤلفات وظيفته، فيما يرى ذلك حكماء الصين :فالأغاني تصف الدوافع، وتضمن الموسيقى والتناسق، ويوضح التاريخ الوقائع والأحداث، وتبحث الطقوس في أنماط السلوك، وتضم الحوليات أسمى أنواع الفضائل والخيرات وتظهر الواجبات التي نهض بها حكماء الصين فيما قبل التاريخ، ويكشف كتاب التغيرات النقاب عن الحياة الفكرية وتراث هذه الأمة العريق يتفرَد الصينيون بالعقلية التاريخية، وما خلَّفوه من كتابات تتعلق بأحداث الماضي شيء كثير وتقوم المعلومات الحضارية التي ورد ذكرها في كتب التاريخ الصيني، دون أي شك، على أساس سليم صحيح ويتألف كتاب التاريخ من عدد من البلاغات والتوجيهات والأحاديث المهمة والخطب التي ألقاها الحكام والحكماء ومن قبيل ذلك :إلقاء خطاب على الجنود قبيل خوض المعركة، أو على شعب مهزوم عقب اندحاره عسكريا، أو خطاب موجه إلى سكان مدينة بنيت

حديًثا، أو كتاب استقالة وزير من منصبه ويستمد الكاتب أهميته من احتوائه على أقدم الوثائق التاريخية الصينية، وعلى منابع الحكمة وقد عكف كونفوشيوس على دراسة التاريخ، وكان يقول عن نفسه إنه ناقل أكثر منه مبدعا ،وتأثر، بفضل اطلاعه على كتاب التاريخ، بمنابع الحكمة التى احتوى عليها، واستمد منها آراءه

كتاب الأغاني أو الأناشيد

مختارات تتألف من حوالي ثلاثمائة بيت من الشعر، بعضها عبارة عن أغانٍ شعبية كانت شائعة في جهات الصين المختلفة إبان عهدها الإقطاعي، وبعضها الآخر عبارة عن أغانٍ كان ينشدها أعضاء الطبقة الأرستقراطية خلال تأدية شعائر القرابين أو في ولائمهم أو غير ذلك من المناسبات ويرجع عهد هذه المختارات إلى أوائل عصر أسرة تشو التي حكمت الصين ابتداء من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، كما يرجع عهد بعض هذه الأغاني إلى أوائل عصر أسرة شانج التي استمر حكمها للصين من القرن السادس عشر حتى القرن الحادي عشر قبل الميلاد وقد عمل كونفوشيوس بنفسه على اختيار هذه الأشعار والأناشيد وتنقيحها وإعدادها للنشر، وتدور موضوعاتها حول شكاوى الفلاحين من اضطهاد الحكومات الفاسدة لهم، ومن ظلم جباة الضرائب وهاك مقتطًفا من كتاب الأغاني :

فأر ضخم شكوى فلاحين من جباة الضرائب فأر ضخم، فأر ضخم
لا تأكل أذرتي ثلاث سنوات أتولى خدمتك لكنك لن تقيم لي وزًنا
إنني أعتزم تركك متجها إلى تلك الأرض السعيدة
أرض سعيدة، أرض سعيدة حيث سأجد مكانًا
فأر ضخم، فار ضخم لا تأكل زرعي
ثلاث سنوات أتولى خدمتك ولم تتحِ لي راحة
إنني أعتزم تركك وسأذهب إلى تلك الحقول السعيدة
فليس هناك من يئن ويتأوه
كتاب الطقوس

وتتناول مجموعة النصوص، التي يضمها هذا الكتاب، بالبحث مجالا واسعا من الموضوعات، منها الفكرية العميقة، ومنها أنماط السلوك في الحياة اليومية وقد تولى كونفوشيوس تصنيف هذه النصوص وإعدادها للنشر ويلحق بكتاب الطقوس كتاب خاص بالموسيقى

حوليات الربيع والخريف تتضمن سجلا مختصرا لأحداث مملكة لو موطن ٤٨١ ق م – رأس كونفوشيوس، خلال الفترة ٧٢٢ وقد تولى كونفوشيوس نفسه جمع الحوليات من سجلات كانت في محفوظات مملكة لو وتظهر الحوليات الواجبات والصفات المميزة التي ينبغي أن يتصف بها الحكام بغية إقامة مجتمع العدل والسلام، ويغلب عليها الغموض والاختصار، ومن هنا تعددت الشروح والتعليقات عليها من جانب الكتَّاب الصينيين

كتاب التغيرات يُعَدُ كتاب التغيرات أهم الكتب الصينية التي يبدأ بها تاريخ التفكير الصيني المدون،ومنشأ الاسم راجع إلى احتوائه ،على كثير من التطورات الفكرية المختلفة، ويجسد الكتاب، بحق، جوهر الثقافة الصينية، وحكمتها الثمينة أما نصوصه،فقد أثبت العلماء أن بعضها يرجع تأليف الكتاب إلى الملك الحكيم فيوهسي البطل الثقافي الأسطوري، وذلك في عام ٣٣٢٢ قبل الميلاد، وإذا كنا لا نعرف على وجه الدقة كم عمر الكتاب، إلا أننا نعرف أنه قد تداولته أيدي جيل بعد جيل، وأن فكرته موغلة في القدم، وأنه يحظى بتقديس الصينيين له وكان لكونفوشيوس فضل كبير في نشر كتاب التغيرات، وتجميله بما علَّق عليه من الحواشي، وكان يتمنى أن يعتزل المجتمع خمسين عا ما يقضيها في دراسته ويغلب على الكتاب الغموض الفائق، وأقواله خفية المعنى، ملتوية المغزى ويتحدث الكتاب عن أصل الأشياء الصينية، وأن نظام هذا الكون وضعه حكام العصور القديمة الأسطوريون، وأن هؤلاء الحكام، الذين يشبهون الآلهة، بدأوا أولا بوضع الأمور الضرورية لتقوية وحفظ نظام الكون، وبعد أن أتموا ذلك استخدموا مواهبهم في اختراع الأجهزة النافعة للناس ولما كان الكتاب – في

الأصل سجلا للعرافة والكهانة، وغرضه الأساسي تنجيميا، فإنه يشير إلى الاختراعات السحرية الأولى، وأن من أوائل الأشياء التي اخترعها أحد أنصاف الآلهة الأزليين تلك العلامات السداسية وعددها أربعة وستون، وهي أشكال مقتبسة في الأصل من الأشكال التي تنشأ عن حرق صدفة السلحفاة تتكون من خطوط متوازية بعضها متصل، والبعض متقطع، ومرتبة في اتجاهات مختلفة ولكل شكل من هذه الأشكال الأربعة والستين معنى مختلف عن الآخر، ولكل واحد منها معنى سحري واستخدموا هذه الأشكال ومازالوا يستخدمونها حتى الآن في الإنباء بالغيب ومعرفة الطوالع وذلك لمعرفة ما إذا كانت الظروف ملائمة للقيام بأي نشاط أم أنها غير ملائمة فعلى سبيل المثال أصبحت الجيوش تستخدمها في المعارك، ويعتمد عليها الحكام في رسم سياساتهم، ويستعين بها الأفراد في وجيه شئونهم الخاصة ويذكر كتاب التغيرات أن الأباطرة الأوائل توصلوا إلى اختراع الأشياء المفيدة عن طريق التأمل في هذه الأشكال، بل اتجه العلماء أنفسهم إلى الاستعانة بهذه الأشكال ورموزها في دراساتهم فأصبحت عماد الفكر الصيني حتى وقتنا الحاضر سواء في مجال الأخلاق والسياسة والاقتصاد والأدب والاجتماع أو في مجال العلوم الطبيعية كالطب والكيمياء والفلك إلخ ويتم الخلق في الواقع عن طريق عاملين تتألف منهما ظواهر الكون بأسره هما :ين ومعنى يانج الحرفي هو الضوء أو الشمس، أماين، فيعني الظل أو القمر واليانج إيجابي، والين سلبي الأول ذكر والثاني أنثى ومعنى هذا أن اليانج يمثل في هذا الثنائي الرمزي كما يشير إلى ذلك كتاب التغيرات العنصرالإيجابي الفعال، المنتج، السماوي، عنصر الضوء والحرارة والحياة، والسماء هنا ترمز إلى الأب رمز القوة والسيادة على حين أن الين يمثل العنصر السلبي، المنفعل، الأرضي، عنصر الظلمة والبرودة والموت والأرض هنا هي الأم التي تتلقى الأمطار، وتدل على الحنان، والعطف، والمودة، توكيدا لمبدأ الأنوثة المطلق فعن طرق الاتحاد، إذن بين السماء والأرض،أو بين

الأب والأم، أو بين عاملي الذكورة والأنوثة تنشأ الموجودات في هذا الكون الفسيح فثنائي اليانج والين ثنائي تكاملي، يكمل أحدهما الآخر، وبفضل هذا التكامل يتوافر للكون انسجامه وتناسقه، وهذا مما يخالف الثنائي المألوف خارج الصين، ونعني به ثنائي الروح والمادة، الخير والشر، القلب والعقل، الحركة والثبات، الصواب والخطأ، وهو ثنائي متضاد، ينفصل أحد شقيه عن الآخر، ويباينه تماما أما اليانج والين، كما يوضح كتاب التغيرات، فإنهما مترابطان متكاملان ولاغنى لأحدهما عن الآخر ويلفت نظرنا هذا الاختلاف الواضح بين مفهوم التغير عند الصينيين ومفهومه عند هيراقليطس الأفسوسي فنظرية هيراقليطس تفهَم على أنها فلسفة التغير الدائم للأشياء، وينسب إليه أفلاطون، في محاورة كراتيل، ولكن إذا كان الكتَّاب ، عبارة :كل شيء يجري والفلاسفة اليونان القدامى، قد أعلنوا أن كل شيء يتحرك ويتغير، إلا أن هيراقليطس تميز بأنه صاغ بشجاعة عام ٥٠٠ قبل الميلاد، وهو نفس العام الذي اتخذ فيه كتاب التغيرات شكله الحالي وبشكل بالغ لحزم مسألة الحركة والتغير في كل الأشياء حتى النهاية وإذا كان هيراقليطس قد اعتقد بأن الحياة حركة تتكشف من خلال صراع الأضداد وآمن بانسجام نظام الكون بفعل اللوجوس الكلمة أو الله - الذي يشكل الهيولي مادة الكون الأولى قبل تكوينه ، إذ إن اللوجوس هو الذي يحدد الثبات والاعتدال والتناسب والانتظام في كل ما يجري في العالم، لأنه في نهاية الأمر هو العقل الكوني المنظم للكون فإننا نجد، في مقابل هذا، أن الصينيين قد آمنوا بوحدة مبدئي الحركة و القانون الثابت الذي يتحكم فيها ويسيطر عليها، عكس هيراقيلطس ومن نهج نهجه فالقلب والعقل، جزءان في وحدة واحدة، يعملان معا، ولا يمكن لهما أن ينفصما ومثل هذا يمكن أن يقال عن السكون، إذ إنه عند حكماء الصين، ليس نقيضا للتغير، بل يعتبر السكون والحركة واجهتين للتغير وإذا كان التغير، وفًقا للمفهوم الصيني، هو مبدع جميع الموجودات، فإن اللوجوس عند هيراقليطس، هو القوة المحركة لكل تغير في الأشياء، فكل شيء يجري بالتوافق مع هذا اللوجوس ويرجع أساس الفهم

الصيني للتغير إلى الملاحظة الواعية للظواهر الطبيعية وأحداثها مثل :سير الشمس والنجوم، تعاقب الليل والنهار، تتابع الفصول إلخ ويروى عن كونفوشيوس أنه كان يقف ذات يوم، إلى جوار نهر متدفق، فصاح قائلا :كل شئ يتدفق على الدوام ليل نهار كهذا النهر وإذا كانت حركة التغير عند هيراقليطس تتجه إلى الأمام، فإن نفس الحركة، وفًقا للمنطق الصيني، تتجه اتجاها دائريا شبيها باللولب، فهي ترجع إلى نقطة بدايته بما يحفظها من التشتت والضياع، الذي تتعرض له الحركة ذات البعد وتؤكد فكرة إمكان التأثير في التغير، التي اشتمل عليها كتاب التغيرات، عظم المكانة التي يحتلها الإنسان في الكون، فقد أصبح هذا الإنسان مركز الكون، ومحور أحداثه،وبإمكانه أن يقف ندا لقواه :السماوية والأرضية ويتم هذا التأثير بمسايرة التغير ومجاراته، لا بمقاومته والوقوف ضده فإذا كانت البذرة تنمو تلقائيا بفضل التغير، إلا أن في إمكان الإنسان، تاج الخليقة ومركز الأحداث، التدخل في عملية التغير عن طريق قيامه بزارعة البذرة وإذا كان الفليسوف الألماني فردريك هيجل سوف يلحظ في العصر الحديث أن الناس دائما يكرهون التغيرات والتطورات المفاجئة؛ لأنها بالنسبة إليهم تعد مآسي للجنس البشري، حتى إنه قيل :ألا ما أسعد الإنسان الذي لا تاريخ له فإن كتاب التغيرات ينتهي إلى حكمة عملية مفادها أن الرجل العاقل الحكيم، والحاكم الفاضل، على كل منهما أن يهيئ نفسه لاستقبال الأحداث المفاجئة والمخاطر الطارئة التي تفد مع التغير، مع الاحتياط لتقلبات الزمان وصروفه وفي هذا يقول أحد حكمائهم وهو هسي تزو كلاما يعد من محاسن الكلم وجوامع الحكم: الإنسان الذي يجعل الخطر ماثلا في ذهنه يحتفظ بمكانته، والذي يرى النكبات قائمة أمام ناظريه يعيش والذي يعمل حسابا للفوضى المتفشية، يتمكن من السيطرة على المجتمع ومن تقدر له السيطرة على المجتمع، يجب ألا ينسى إمكانية تعرض حكمه للاضطراب، فالسلطان الحكيم من لا ينسى العدوان في أوقات السلم والذي يتخذ الحيطة ضد العابثين

بالأمن، ويجب أن يتحلى المرء بالتواضع لأن الدنيا إذا أقبلت لا تلبث أن تدبر

نشأة النظام الاجتماعي وتطوره:

سيطرت الأرستقراطية الوراثية على كل مظهر من مظاهر الحياة في الصين، خلال عصر أسرة تشو وقد عد مؤسسو العائلات الأرستقراطية المشهورون أبطالا أسطوريين ، بل آلهة والدليل على هذا هو اعتقاد الصينيين أن ملوك أسرة تشو منحدرون من جد أو بطل ومعناه الحرفي ملك أسطوري يدعي هوتشي أو حاكم الأذرة ، وكان إلها للزراعة ولما بلغ هذا الجد العظيم أشده، صار يعلم الناس كيفية زراعة الحبوب واعتقد الصينيون أن أسلاف الطبقة الأرستقراطية يعيشون، بعد مماتهم، في السماء، حيث يشرفون على مصير ذرياتهم فيمنحونهم النصر في الحرب، والرفاهية والرخاء في السلم، إلا إن سخطوا عليهم وفي مقابل هذه الأفضال التي ينعم بها الأسلاف على ذرياتهم وأحفادهم، يجب تقديم القرابين إلى أرواحهم وإطاعة رغباتهم إلى أقصى حد عن طريق العرافين والكهان أو أي وسائل أخرى وفي مثل هذا الوضع الذي يستمد فيه الأرستقراطيون سلطانهم بفضل قدرة أجدادهم في السماء، لا من أعمالهم وقوتهم على الأرض، لم يكن يأمل أحد من عامة الشعب في أن يصبح حاكما صغيرا أو كبيرا؛ لافتقاره إلى حدب أجداده الأعلين البارعين ورعايتهم لقد تألفت غالبية الشعب تقريبا من الفلاحين والصناع والأرقاء الذين يعملون لدى الأرستقراطيين، ولم تكن لهم حقوق ثابتة تجاههم، بل يبدو أنهم كانوا يعاملونهم كما يروق لهم وتقول إحدى القصائد في كتاب الشعر : إن عامة الشعب قانعون، ففي كل يوم عندهم ما يكفي للأكل والشرب ولكنهم، في الحقيقة، لم يأكلوا قط ما يكفيهم من طعام، كما يشير إلى ذلك أيضا نفس الكتاب السابق ولما كان ملوك تشو غزوا الصين بقوة السلاح، دون اعتماد على مبدأ الأسلاف، ابتدعوا مبدأً جديدا ييسر لهم حكم البلاد هو مبدأ القضاء والقدر أو مبدأ توضيح المصير بمعنى آخر، وهذا المبدأ يبرر لهم غزو البلاد، واعتلاء العرش بدلا من الحكام الشرعيين، ويسمي حكام تشو هذا المبدأ

باسم قانون السماء وكانت السماء أعظم الآلهة قدرا ، استيلاء حكام تشو، كما يدعون، على ملك شانج ألقته السماء على كاهلهم، وجاء تلبية لأمرها لقد كان لحكام أسرة تشو في ابتكارهم لمبدأ القضاء والقدر الذي يبرر الاستيلاء بالقوة على مقاليد السلطة من الحكام الشرعيين، دور كبير في إضعاف نفوذ فكرة الأسلاف التي اعتمد عليها حكم الملوك وسلطان الأرستقراطية الوراثية، كما كان لهم دور كبير في فتح الباب واسعا أمام كل متمرد على السلطة الحكومية، أو غازٍ لأراضي الغير، أو متحدٍ لحكم أحد النبلاء، أن يبرر أفعاله باستناده إلى فكرة أمر السماء ومنذ ذلك الوقت وما جاء بعده، كان النمط العادي للثوار هو التمسك بملكية القرار السماوي

المجتمع عند كونفوشيوس

عند كونفوشيوس المجتمع طبقي، يتميز كل فرد فيه بوضع اجتماعي محدد تحديدا دقيقًا يتفق مع أخلاقه وعمله بل ونسبه ومن الأمور الواضحة أنه كان يوجد فارق كبير بين النبلاء والعامة وتتألف طبقة النبلاء، في ظل النظام الإقطاعي للصين القديمة، من السادة الإقطاعيين والوزراء وكبار موظفي الدولة، وكان هؤلاء جميعا سادة الشعب سياسيا واقتصاديا وعلى رأس هؤلاء جميعا كان الإمبراطور ابن السماء وكان كل العامة تقريبا، فيما عدا قلة من الصناع المحترفين المهرة، فلاحين، وربما كانوا عبيدا في حوزة سادتهم الأعلين وكان النبلاء يحصلون على إقطاعياتهم من الإمبراطور مباشرة، ثم يقومون، بعد ذلك،بتوزيعها على أقاربهم، وهؤلاء يتولون، بدورهم، تأجير الأرض للفلاحين لزارعتها وكان في مقدور النبلاء، أن يعاملوا عامة الناس، كما يروق لهم، فيجبرونهم على القيام بأعمال بالقوة، أوقات السلام، أو يفرضون عليهم الضرائب، كما كانوا يلزمونهم بحمل السلاح وقت الحروب كما كانت هناك تفرقة واضحة أيضا أمام قانون العقوبات بين النبلاء والعامة، فإذا اقترف النبيل أي جريمة فإنه لا يمكن أن يقتل، ولكن إذا ثبتت إدانته في جريمة كبيرة كانوا يضطرونه لينتحر بيده أما عامة الشعب فكانوا

معرضين لأن يوقع عليهم العقاب الصارم سوا ء في أشخاصهم أو في ممتلكاتهم يؤكد هذه التفرقة، أيضا، بين النبلاء والعامة، أحد الأمثال التي كانت شائعة في ذلك العهد، يقول :إن الشعائر الدينية لا تنزل إلى مستوى الشعب، كما أن قانون العقوبات لا يرتفع إلى مستوى النبلاء وقد شهدت الصين ابتداء من عام ٧٢٢ ق م حتى عام ٢٠٦ قبل الميلاد، أي مع بداية حكم أسرة هان، تغيرات جوهرية، أهمها انهيار النظام الإقطاعي الذي فتح الباب واسعا أمام الكثير من عامة الشعب، ممن يتمتعون بثقافة عالية وخلق قويم، لتولي الكثير من الوظائف الإدارية الهامة وبلغت هذه التغيرات ذروتها على يد الإمبراطور وو – تي ٨٧ ق م بإنشائه نظام الاختيار عند الالتحاق بوظائف الدولة ومما عجل أيضا، بانهيار النظام الإقطاعي، وطغيان الفوضى على النظام الطبقي، تزايد القوة الاقتصادية لكل من الفلاحين، أرقاء الأرض والتجار وكانت غاية كونفوشيوس هي إصلاح المجتمع الصيني بعد أن استشرى فيه الفساد والانحلال، وطغت عليه المشاحنات الداخلية بين الممالك الصغيرة، وسادته القسوة والعنف والفوضى ومن هنا هب لمناصرة النظم والتقاليد القديمة التي كانت سائدة في الأسرات السابقة على عصره وعلى رأس هذه النظم النظام الطبقي، الذي تميز بوجود تقاليد وعادات محددة لكل طبقة من الطبقات والفئات المكونة له، كما كان لكل طبقة حقوق وعليها واجبات، كما تميز هذا النظام، أيضا، بوجود طقوس وشعائر وقرابين تختلف قليلا أو كثيرا من طبقة إلى أخرى، بل وصل الأمر إلى وجود زي خاص لكل منها لقد كان هدف كونفوشيوس من دعوته إلى إحياء النظام الطبقي القديم، هو أن يحدد لكل فرد في المجتمع الدور الذي ينبغي عليه القيام به، ووضعه الاجتماعي ومركزه الأدبي، تحديدا دقيًقا، إنقاًذا لبلاده من حالة الفوضى، ووصولا بها إلى النظام والاستقرار والتقدم والرخاء ولكن علينا أن نلاحظ أن النظام الطبقي الذي ساد الصين يختلف اختلاًفا بيًنا عن النظام الطبقي الذي عرفته بعض الشعوب القديمة كاليونان والهند على سبيل المثال، بل لازالت بعض جهات الهند متمسكة به حتى العصور الحديثة ففي

الوقت الذي يعترف فيه النظام الكونفوشي بالطبقات، إلا أن الطبقات عنده لم تكن في حالة جمود، وبهذا أعطى الكثير من الفرص للأفراد من أبناء العامة أصحاب المواهب العقلية والطبيعية والأخلاقية، للوصول إلى طبقة النبلاء وتولي أرقى المناصب في البلاد أما النظام الطبقي، في اليونان والهند مثلا، فقد اتصف بالجمود والانغلاق، وأبرز التمايز بين الطبقات بحيث يبقى الملاح ملا حا ولا يتحول إلى قاضي، والاسكافي إسكافيا، والزارع زارعا، والكاهن كاهًنا وهكذا كما تمايزت الطبقات في هذه الشعوب القديمة بأن لكل منها دينها الخاص بها وآلهتها التي تميزها عن الطبقات الأخرى وعاداتها وتقاليدها وثقافتها الخاصة بها ويشبه نظام كونفوشيوس الطبقي النظم الديمقراطية الحديثة التي ترفض نظام الطبقات الجامد المنغلق وتقول، عوضا عنه، بالنظام الطبقي المفتوح ففي الوقت الذي تساوي فيه هذه النظم بين الناس أمام القانون، إلا أنها تقر بانقسامهم إلى طبقات تقوم على مراكزهم الاجتماعية وعلى ما يتمتعون به من مواهب عقلية، وصفات أخلاقية عالية ولعل هذا هو نفس الحال الذي كانت عليه الطبقات في أيام كونفوشيوس، إذ رفض أي نوع من أنواع التسوية بين الذكي والغبي أو الصالح والطالح أو المثقف والجاهل، حتى لا يحرم أحد من جني ثمار أعماله، وليهيئ بذلك للمواهب العقلية والأخلاقية أن تتبوأ المكان اللائق بها في المجتمع فلابد، إذن، في رأي كونفوشيوس، من الاعتراف بالطبقات الاجتماعية، إذ يحتم العدل، كما أشرنا، ألا نضع جميع الأفراد في منزلة أو مكانة واحدة وإذا كان القانون الأخلاقي يوجب علينا العدل والرحمة والأريحية والشفقة والإحسان دون تفرقة بين فرد وآخر أو بين مواطن وأجنبي، إلا أنه يوجب علينا أيضا أن ننزل كل فرد منزلته الحقيقية، وأن نضعه في المركز الاجتماعي الذي يتفق مع قدراته الذهنية ومواهبه الأخلاقية وعمله الناجح بل وحسبه ونسبه ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى :إن تعظيم هؤلاء الذين هم أحق منا بالتقدير لهو أسمى تعبير عن معنى العدل ذلك أن الدرجات الشرفية النسبية التي نخلعها على من هم أجدر منا، هي أساس ظهور

الفوارق في الحياة الاجتماعية، وأساس النظام الاجتماعي لأن الفوارق الاجتماعية بين الناس إن لم تكن قائمة على أسس أخلاقية سليمة، فإن من المستحيل على الناس أن يكونوا حكومة أو أن يتمكنوا من أن يسوسوا أمورهم ويقول كونفوشيوس أيضا :وعلى ذلك فإن من يتميز بالصفات الأخلاقية العظيمة سينال بكل تأكيد المكان السامي الذي يليق بهذه الصفات، كما سينال الرخاء المناسب لأخلاقه لأن الله إذ وهب الحياة لمخلوقاته لا شك يهب هذه المخلوقات من النعم ما يتناسب مع صفاتها فهو ينمي الشجرة الممتلئة بالحيوية، على حين أنه يطيح بتلك التي قد تطور الفساد إليها يتضح مما سبق أن معيار أهلية الفرد في نظام كونفوشيوس هو كفايته الأخلاقية وصفاته الذهنية وعمله النافع وقدرته على إسعاد المحيطين به وقد احترم كونفوشيوس الملكية الفردية، ورأى فيها حًقا من حقوق أفراد المجتمع ووصل تقديسه للملكية الفردية إلى الحد الذي اعتبرها المعنى الأول للعدل، بل زاد على ذلك أن ساوى، في كثير من الأحيان، بين العدل واحترام الملكية،ومن هنا فإن الاعتداء على الملكية يشكل جريمة كبرى من جرائم المجتمع وليس بدعا أن تقوم الكونفوشيوسية، من بعد ذلك، بمحاربة الداعين إلى الاشتراكية والشيوعية في القرنين السابقين على الميلاد، وتنتصر عليهم انتصارا ساحًقا ولكن كونفوشيوس رفض، من ناحية أخرى، أن تتركز الملكية أو الثروة في أيدٍ معدودة، وأنكر أن يصبح للمالك السلطان المطلق فيما يملك بغير أي قيد عليه، فيؤدي ذلك إلى التصارع بين الأفراد، وتشتيت الشعب، فالتضخم غير الطبيعي في الملكية، تترتب عليه دائما آثار فاسدة من أجل ذلك وتحاشيا لهذه الآثار المدمرة، دعا كونفوشيوس إلى ضرورة توزيع الثروة في أوسع نطاق لأن :تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته وعلى ذلك، فالمجتمع الفاضل في رأيه، هو ذلك المجتمع الذي يرفض أن ترتكز الملكية الفردية فيه إلى غير العمل، كما يرفض أن تكون الثروة عن غير هذا الطريق فالسبيل إلى إنتاج الثروة، إذن، هو العمل، ثم إن الذين ينتجون الثروة، في هذا المجتمع، يكرهون أن

يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس، كما أنهم لا يبتغون من عملهم منفعتهم الشخصية أو سعادتهم الذاتية دون سعادة الآخرين وبهذه الطريقة يحد من تضخم الثروة في المجتمع، ويتحقق التكافل الاجتماعي بين الناس جميعا، وتغمرهم روح العطف والشفقة، وينعم الشيوخ والأرامل والأيتام والعجزة بالحياة المطمئنة الكريمة وقد عاشت الصين فيما يرى ذلك كونفوشيوس، هذا العصر الذهبي في أيام الأسرات الثلاث الأولى التي سبقت عصره، فعمَ الوفاق والخير والطمأنينة والسلام جميع الأفراد الذين نظروا إلى بعضهم على أنهم أفراد أسرة واحدة، ونتج عن ذلك اختفاء اللصوص وقطاع الطرق يقول كونفوشيوس: وفي مثل هذا المجتمع، كان الشيوخ يقضون مدة شيخوختهم في سعادة ومتعة، وكانت الفرصة مهيأة أمام الشبان لإظهار مواهبهم، كما كان الشبان اليافعون الأصحاء يقومون بواجب العناية بالشيوخ والأرامل والأيتام والعجزة، وهي الفئات الاجتماعية التي لا حول لها ولا قوة ولقد ساد في هذا العصر تقسيم عادل للعمل، فلكل رجل حرفته المخصصة له بحيث لا يتعدى على اختصاص الآخرين، للمرأة المنزل وما يتعلق به من شئون وإذا كان الأفراد في تلك العصور قد قاموا بجمع الثروات، فإن هذا الجمع لم يكن يتم لحسابهم الخاص، كما أن نتيجة عملهم وجدهم لم تكن لهم كأفراد، بل كانت للمجموع وعلى ذلك لم يكن ثمة مكان للنصب والاحتيال، ولا مكان للعصابات واللصوص، بل لم يكن صاحب المنزل بحاجة إلى إحكام غلق منزله ليلا كان ذلك عصر الثروة المشتركة العظيمة، أي عصر القانون الأسمى أما الآن أي في الأسرة الرابعة وهي أسرة تشو التي كان كونفوشيوس يعيش تحت حكمها فإن هذا القانون الأسمى لم يعد له وجود، فالعالم، ويقصد به هنا الصين، الآن قد انقسم إلى أسر خاصة، وأصبح الناس لا يعترفون بصلة القربى إلا بالنسبة لوالديهم وأولادهم وكل فرد يعمل ليجمع الثروة لحسابه الخاص ولمتعته الشخصية ونتج عن ذلك تكوين أرستقراطية وراثية، كما بدأت الولايات المختلفة في إنشاء مدن وقرى على حدودها لكي تخصصها للدفاع عن نفسها وإذا كان

فكر كونفوشيوس، في مرحلته الأولى، قد غلبت عليه التصورات المثالية، وهي التصورات المعروفة وهي كلمة مشتقة من كلمتين باسم اليوتوبيا بمعنى اللامكان أو المكان الخالي -إذ عمد في هذه المرحلة، التي امتلأ فيها عصره بالفوضى والظلم الصارخ، إلى تخيل وجود مجتمع نموذجي تسوده المساواة المطلقة بين الأفراد، ويعمه الخير والسعادة وبهذا المجتمع المثالي الذي تخيله كونفوشيوس نموذجا للكمال، انضم إلى مجموعة المفكرين الخياليين الذين رسموا صورا للمجتمع المثالي الذي يسوده الخير والفضيلة، بعيدا عن الواقع الإنساني الملموس، وأشهرهم أفلاطون المتوفى عام ٣٤٧ قم في جمهوريته قديما والفارابي المتوفى عام ٩٥٠ م في مدينته الفاضلة، وكامبا نيللا في مدينة الشمس، في العصر الوسيط وتوماس مور المتوفى عام ١٥٣٥ م في يوتوبياه ، وفرنسيس بيكون المتوفى عام ١٦٢٦ م في أطلنطس الجديدة، وكانط المتوفى عام ١٨٥٤ م في السلام الدائم، في العصر الحديث و ه ج ولز المتوفى عام ١٩٤٦ م في يوتوبياه الحديثة في زمننا المعاصر إلا أن كونفوشيوس سرعان ما تخلى عن هذه النظرة المثالية، بعد أن تبين أن مدينته المثالية تجافي الطبيعة الإنسانية، وتفترض وجود صفات وسمات لا تتوافر في هذه الطبيعة بالفعل، وبدأ في اعتناق النظرة الواقعية التي جعل أساسها الطبيعة الإنسانية وقدراتها الفعلية والمجتمع الإنساني ومشكلاته الجوهرية ويبدو أن السبب الذي دفعه إلى تصور المجتمع المثالي هو ضيقه بالواقع الذي امتلأ بالمصائب والشرور، ومن هنا كانت محاولته، تجاوز هذا الواقع الأليم إلى تصوير ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع الإنساني، حتى تقترب منه النظم والأفكار قدر المستطاع

نظام الأسرة:

ومن الأفكار التي سادت الحضارة الصينية،واستمرت لها أهميتها في الفكر الصيني فكرة الاهتمام البالغ بالأسرة وتمجيدها، فنقرأ في كتاب الشعر:من بين جميع الرجال في العالم لا يوجد ما يعادل الأخوة إن الإخوة يتعاركون بين

الجدران لكنهم يبقون متحدين ضد إهانة تصدر من الخارج في حين أن أفضل الأصدقاء مهما يكن من كثرتهم، لن يقاتلوا من أجلك وقد نظر الصينيون إلى الأسرة باعتبارها صورة مصغرة للدولة، الأب فيها هو الحكام، وسلطته مطلقة؛ إذ كان له حق الحياة والموت على جميع أفرادها بدون استثناء ودون أي اعتراض وقد كانت الأسرة تشكل بالمثل، وحدة اقتصادية، كل فرد يعمل على إسعاد الجميع، وله مهمته الخاصة التي يجب أن يحققها وإذا كان مبدأ تعدد الزوجات غير شائع من الناحية النظرية، إلا أننا نلحظ أن العروس من النبلاء عندما كانت تذهب إلى بيت زوجها، كان تصحبها أخت أصغر منها، وبعض الخادمات، ويصبحن كلهن، في نهاية الأمر وبصورة آلية محظيات للزوج وقد تبوأت المرأة في ذلك الوقت، مركزا عاليا، وكان من حقها تعلم القراءة والكتابة، حتى أن الأزواج كثيرا ما كانوا يستشيرون زوجاتهم حتى في شئون الدولة إن تقليد طاعة الآباء وإكبارهم، لم يبتدعه كونفوشيوس، كما يظن الكتاب الغربيون، بل له وجود منذ زمن غارق في القدم ففي فقرة من كتاب الشعر، كتبت منذ أجيال طوال قبل عهد كونفوشيوس تقول :ليس هناك من تعَنى به عنايتك بأبيك، ولا إنسان تعتمد عليه كأمك ولم تكن طاعة الآباء والأجداد مجرد عمل أخلاقي أو التزام أدبي، بل كان أيضا فرضا شرعيا وواجبا قانونيا وكانت إساءة معاملة الأبوين أو جرح قلب أحدهما، وعدم احترام الأخوة الكبار وتحديهم، من الجرائم الخطيرة التي تستوجب العقاب، بدون شفقة

التربية والتعليم في الصين القديمة:

اهتم الصينيون القدماء بالتعليم والتربية اهتماما كبيرا والدليل على هذا أنهم اعتبروا العلماء منهم أبطالهم المفضلين لقد كان التعليم هو أفضل طريق للوصول إلى الثورة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية والسلطة السياسية؛ومن هنا كانت دعوة ملوك الصين، في العصر السحيق، الناس إلى شغل أوقاتهم بالتفكير والدراسة، باعتبار التعليم أهم عامل في سبيل نجاحهم في وضع نظام اجتماعي صالح وسليم

وقد رأى الصينيون أن فائدة التعليم تشمل المتعلمين والمعلمين معا، إذ يحاول المعلمون، عند قيامهم بمهمة تعليم الآخرين، تدارك أوجه النقص في معلوماتهم، وما يشوبها من أخطاء، فيعملون على تدارك هذا بتنمية معلوماتهم والاستزادة من المعرفة الصحيحة والعلم السليم وفي ذلك يقول المثلان الصينيان القديمان: إن التدريس نصف التعليم وإن عملتي التعليم والتعلم تذكي كل منهما الأخرى ويتفق نظام التعليم، سواء في ذلك السابق على كونفوشيوس أو في عصر كونفوشيوس نفسه مع أحدث نظم التعليم السائدة في عصرنا الحالي فلقد كان هذا النظام قائما على فتح مدرسة ابتدائية في كل قرية يقطنها ٢٥ أسرة، ومدرسة ثانوية في كل مدينة يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ أسرة، وجامعة في كل مقاطعة يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠ أسرة وكان دخول الجامعة مقصورا على أبناء الطبقات الراقية من ملوك وأمراء ونبلاء ومن يظهرون كفاءَة وتفوّقا في المدارس الابتدائية والثانوية التي كانت مفتوحة لأبناء الطبقات الشعبية بلا تفرقة

أولها :المرحلة الابتدائية، وتبدأ من سن العاشرة حتى بلوغ التلميذ سن الثالثة عشرة وفي هذه المرحلة يتعلم التلاميذ في المدرسة الابتدائية القراءة والكتابة والحساب، ولا يُعَقد امتحان لهم إلا في نهاية السنة الثالثة ويسمى مثل هذا الامتحان بالامتحان الكبير، وذلك تمييزا له عن الامتحانات الصغيرة التي كان المدرسون يقومون بها في نهاية بعض السنين للتأكد من أن التلاميذ قد استوعبوا الموضوعات الدراسية

وثاني هذه المراحل، المرحلة الثانوية، وتبدأ من سن الثالثة عشرة حتى بلوغ الطالب سنة التاسعة عشرة، وهذه تنقسم إلى قسمين :فمن الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة، يدرس التلاميذ الموسيقى والشعر والرقص وفن الرماية، ثم يعقد امتحان للطالب ليعرف مدى تفكيره وتكوينه العلمي وكان يمنح في هذا الامتحان الدبلوم الصغير أو الشهادة الصغيرة ثم يأتي القسم الثاني ويستمر عامين من السابعة عشرة إلى التاسعة عشرة، حيث يعقد بعد حصوله على هذه الشهادة بسنتين،

امتحان الشهادة الكبيرة الذي يفترض فيمن يجتازه أنه بلغ أعلى مرتبة في فهم الموضوعات المختلفة وفي الأخلاق، وينال الطالب هذه الشهادة في سن التاسعة عشرة وثالث هذه المراحل، المرحلة الجامعية وتبدأ من سن العشرين حتى قبيل سن الثلاثين :وتستمر مرحلة التعليم الجامعي هذه المدة الطويلة وغير المحددة في أحيان كثيرة؛ لأن المفروض أن الإنسان يظل طوال حياته يتعلم، وذلك كالنملة التي تظل طيلة حياتها تعمل ويدرس الطلاب، في الجامعة، موضوعات الطبيعة والموسيقى في بعض الأغاني وقيادة العربات والطقوس والعادات والتقاليد ويبدو أن دراسة الطلاب لكثير من الأغاني التي تتناول موضوعات مختلفة، وبما في هذه الأغاني من وزن وقافية كان الهدف منه مساعدة الطلاب على استيعاب المعلومات وحفظ المواد المختلفة، وذلك يذكرنا بما كانت عليه الحال في العصور القديمة والعصور الوسطى المسيحية والإسلامية عندما كانت الموضوعات المختلفة تنظم في مقطوعات طويلة كالإلياذة والأوديسة مثلا أو ألفية ابن مالك، لأن صياغة المعلومات في أسلوب شعري من شأنه أن يساعد الطالب على استيعاب المعلومات وحفظها وكان يعلن عن بدء الحصص ونهايتها بدق الطبول؛ حتى يعود الطلبة على النظام وكان التعليم الجامعي يستمر في الغالب، حتى قبيل سن الثلاثين، وهي سن الزواج بالنسبة للشبان، أما سن الزواج بالنسبة للبنات، فكانت سن العشرين أوالثالثة والعشرين على أكثر تقدير وكان المفروض في التعليم الجامعي أنه كان يعطى لأشخاص قد تركوا سن التلمذة، وأصبحوا يعملون فعلا، ويستهدف هذا التعليم، إذن، تثبيت معلوماتهم، ومدهم بالدراسات التي يحتاجون إليها في الوظيفة أو المهنة التي امتهنوها وكان على الأساتذة، في المدارس المختلفة والجامعات، أن يستخدموا العصا، لتأديب الطلبة ولتنظيم سلوكهم، وذلك يذكرنا بما نادى به حكيم مصر القديم بتاح حتب الذي ظهر حوالي عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد، عندما أوجب استخدام العصا في التعليم والتربية وكان الأستاذ يترك لطلبته، في المحاضرات، الفرصة للتفكير وتكوين معلوماتهم

بأنفسهم، ومتحاشيا بذلك الكلام كل الوقت أما مهمة السؤال، فقد كان مسموحا بها للطلبة الجامعيين الكبار، دون الصغار؛ وذلك حتى يعرف كل فرد مكانه في السلم الاجتماعي، ويتعود على احترام من هو أكبر منه تلك هي بعض قواعد نظام التعليم التربوي التي كانت تسود التعليم في العصور السحيقة السابقة على كونفوشيوس، والتي كان يؤيدها كونفوشيوس، ويريد تطبيقها من جديد في أيامه

التربية والتعليم في الصين القديمة:

اهتم الصينيون القدماء بالتعليم والتربية اهتماما كبيرا والدليل على هذا أنهم اعتبروا العلماء منهم أبطالهم المفضلين لقد كان التعليم هو أفضل طريق للوصول إلى الثورة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية والسلطة السياسية؛ ومن هنا كانت دعوة ملوك الصين، في العصر السحيق، الناس إلى شغل أوقاتهم بالتفكير والدراسة، باعتبار التعليم أهم عامل في سبيل نجاحهم في وضع نظام اجتماعي صالح وسليم وقد رأى الصينيون أن فائدة التعليم تشمل المتعلمين والمعلمين معا، إذ يحاول المعلمون، عند قيامهم بمهمة تعليم الآخرين، تدارك أوجه النقص في معلوماتهم، وما يشوبها من أخطاء، فيعملون على تدارك هذا بتنمية معلوماتهم والاستزادة من المعرفة الصحيحة والعلم السليم وفي ذلك يقول المثلان الصينيان القديمان: إن التدريس نصف التعليم وإن عملتي التعليم والتعلم تذكي كل منهما الأخرى يتفق نظام التعليم، سواء في ذلك السابق على كونفوشيوس أو في عصر كونفوشيوس نفسه مع أحدث نظم فلقد كان هذا النظام قائما على فتح مدرسة ابتدائية في كل قرية يقطنها ٢٥ أسرة، ومدرسة ثانوية في كل مدينة يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ أسرة، وجامعة في كل مقاطعة يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠ أسرة وكان دخول الجامعة مقصورا على أبناء الطبقات الراقية من ملوك وأمراء ونبلاء ومن يظهرون كفاءَة وتفوّقا في المدارس الابتدائية والثانوية التي كانت مفتوحة لأبناء الطبقات الشعبية بلا تفرقة وقد جاءت مراحل التعليم في هذا النظام التعليمي الصيني القديم ثلاثة على النحو التالي:

أولها :المرحلة الابتدائية، وتبدأ من سن العاشرة حتى بلوغ التلميذ سن الثالثة عشرة وفي هذه المرحلة يتعلم التلاميذ في المدرسة الابتدائية القراءة والكتابة والحساب، ولا يُعَقد امتحان لهم إلا في نهاية السنة الثالثة ويسمى مثل هذا لامتحان بالامتحان الكبير، وذلك تمييزا له عن الامتحانات الصغيرة التي كان المدرسون يقومون بها في نهاية بعض السنين للتأكد من أن التلاميذ قد استوعبوا الموضوعات الدراسية وثاني هذه المراحل، المرحلة الثانوية، وتبدأ من سن الثالثة عشرة حتى بلوغ الطالب سنة التاسعة عشرة، وهذه تنقسم إلى قسمين :فمن الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة، يدرس التلاميذ الموسيقى والشعر والرقص وفن الرماية، ثم يعقد امتحان للطالب ليعرف مدى تفكيره وتكوينه العلمي وكان يمنح في هذا الامتحان الدبلوم الصغير أو الشهادة الصغيرة ثم يأتي القسم الثاني ويستمر عامين من السابعة عشرة إلى التاسعة عشرة، حيث يعقد بعد حصوله على هذه الشهادة بسنتين، امتحان الشهادة الكبيرة الذي يفترض فيمن يجتازه أنه بلغ أعلى مرتبة في فهم الموضوعات المختلفة وفي الأخلاق، وينال الطالب هذه الشهادة في سن التاسعة عشرة وثالث هذه المراحل، المرحلة الجامعية وتبدأ من سن العشرين حتى قبيل سن الثلاثين :وتستمر مرحلة التعليم الجامعي هذه المدة الطويلة وغير المحددة في أحيان كثيرة؛ لأن المفروض أن الإنسان يظل طوال حياته يتعلم، وذلك كالنملة التي تظل طيلة حياتها تعمل ويدرس الطلاب، في الجامعة، موضوعات الطبيعة والموسيقى في بعض الأغاني وقيادة العربات والطقوس والعادات والتقاليد ويبدو أن دراسة الطلاب لكثير من الأغاني التي تتناول موضوعات مختلفة، وبما في هذه الأغاني من وزن وقافية كان الهدف منه مساعدة الطلاب على استيعاب المعلومات وحفظ المواد المختلفة، وذلك يذكرنا بما كانت عليه الحال في العصور القديمة والعصور الوسطى المسيحية والإسلامية عندما كانت الموضوعات المختلفة تنظم في مقطوعات طويلة كالإلياذة والأوديسة مث ً لا أو ألفية ابن مالك، لأن صياغة المعلومات في أسلوب شعري من شأنه

أن يساعد الطالب على استيعاب المعلومات وحفظها وكان يعلن عن بدء الحصص ونهايتها بدق الطبول؛ حتى يعود الطلبة على النظام وكان التعليم الجامعي يستمر في الغالب، حتى قبيل سن الثلاثين، وهي سن الزواج بالنسبة للشبان، أما سن الزواج بالنسبة للبنات، فكانت سن العشرين أو الثالثة والعشرين على أكثر تقدير وكان المفروض في التعليم الجامعي أنه كان يعطى لأشخاص قد تركوا سن التلمذة، وأصبحوا يعملون فعلا، ويستهدف هذا التعليم، إذن، تثبيت معلوماتهم، ومدهم بالدراسات التي يحتاجون إليها في الوظيفة أو المهنة التي امتهنوها وكان على الأساتذة، في المدارس المختلفة والجامعات، أن يستخدموا العصا، لتأديب الطلبة ولتنظيم سلوكهم، وذلك يذكرنا بما نادى به حكيم مصر القديم بتاح حتب الذي ظهر حوالي عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد، عندما أوجب استخدام العصا في التعليم والتربية وكان الأستاذ يترك لطلبته، في المحاضرات، فرصة للتفكير وتكوين معلوماتهم بأنفسهم، ومتحاشيا بذلك الكلام كل الوقت أما مهمة السؤال، فقد كان مسموحا بها للطلبة الجامعيين الكبار، دون الصغار؛ وذلك حتى يعرف كل فرد مكانه في السلم الاجتماعي، ويتعود على احترام من هو أكبر منه تلك هي بعض قواعد نظام التعليم التربوي التي كانت تسود التعليم في العصور السحيقة السابقة على كونفوشيوس، والتي كان يؤيدها كونفوشيوس، ويريد تطبيقها من جديد في أيامه

فلسفة كونفشيوس في التربية المثالية والمعلم المثالي:

أولى كونفوشيوس اهتمامه، شطر تثقيف الشباب، وتربيتهم التربية المثالية السليمة التي تؤهلهم للاضطلاع بمستقبلهم كرجال دولة وكانت آراؤه عديدة وجريئة خاصة ما يتعلق منها بإصلاح العالم فجذبت بسحرها، إلى حلقته الدراسية عددا من الأشخاص أصبحوا تلاميذه وكان بعضهم يصغرونه، ببضع سنوات، ومنه ومن هذه المجموعة من تلاميذه ومريديه تشكلت للدراسات العليا، أول مدرسة حرة خاصة في تاريخ الصين وكانت المدارس وقتذاك ملحقة بقصور الحكام

والأرستقراطيين النبلاء ويتعلم فيها أبناؤهم لتدريبهم على فنون الحكم وشغل الوظائف العامة في الدولة وإذا كانت عملية التثقيف في مدرسة كونفوشيوس تتفق مع مدارس الأرستقراطية من ناحية تهيئة الدارس ليكون موظَّفا حكوميا، إلا أن الغاية من التدريس انصبت في الحالة الأولى على تنشئة الدارس تنشئة أخلاقية وتنمية مداركه العقلية ليلعب دورا حيويا مؤثرا في الحكمة التي قد يشترك فيها، بإخضاعه لخدمة احتياجات الشعب، في حين اتجهت غاية التثقيف في المدارس الأرستقراطية إلى تمكين موظف الدولة من مباشرة أعمال تقليدية معينة تخدم أهداف الحاكم، وبذلك يتحول الموظف في هذه الحالة إلى مجرد أداة طيعة في يدي صاحب السلطان ولما كان قد أخذ على عاتقه تحويل رجال من أصول فقيرة متواضعة إلى سادة أماجد نبلاء قادرين على التصرف في المحافل ودواوين الحكومة تصرف النبلاء ذوي الأصول العريقة، حرص على تعليمهم قواعد اللياقة والمجاملة وآدابها، وأساليب الرسميات؛ لأنها تعتمد على الشرف، والاعتزاز بالكرامة والحياء والتثقيف الذاتي وتقديس تقاليد الأجداد النبيلة كان كونفوشيوس يزدري دائما الفصاحة وزخرف القول، وليست هناك أية مصادر صينية تثبت أنه ألقى محاضرة عامة ولكن على الرغم من ذلك فقد كان يتمتع بقوة إقناع خارقة إذا ما تحدث إلى فرد واحد أو إلى مجموعة صغيرة ونستطيع أن نشعر بجاذبية شخصيته من خلال أقواله وآرائه الجريئة في إصلاح العالم، التي كان يوجهها إلى أولئك الذين كان يتصل بهم وقد اجتذب نحوه تدريجيا عددا من الناس أصبحوا أتباعه ومريديه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ونشأت بينه وبينهم صلات ود وثيقة وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهيا لا يلجأ فيه إلى الكتابة، وكانت الحوادث التي تصادفه هو وتلاميذه أثناء التنقل من إقليم إلى إقليم هي التي توحي بموضوع الحديث وكان كونفوشيوس يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم في رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة والانتباه ومن أقواله في هذا المعنى :إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول :ماذا أرى في هذا؟ فأني لا أستطيع أن أفعل له شيئًا وكان

كونفوشيوس معلما من الطراز الأول، يعتقد أن التنائي عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم وكان شديد المراعاة للمراسم وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه وكان يبذل ما في وسعه للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة وقال مرة :قد أكون في الأدب مساويا لغيري من الناس، ولكن خلق الرجل الأسمى أو الماجد، الذي لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد ويقول عنه تلاميذه كان المعلم مبرأً من أربعة عيوب : كان لا يجادل وفي عقله رأي سابق، ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائدهم، ولم يكن عنيدا ولا أنانيا وقد وصف نفسه بأنه مجرد ناقل وليس مبدعا، وأراد أن يقدم للناس خلاصة سهلة مفهومة لكل ما تعلمه من قدماء المفكرين، وكان يؤثر القراءة والاطلاع على الطعام والراحة والنوم وقد آل على نفسه القضاء على شرور أربعة :عقلية مغرضة، أحكام جائرة، العناد، الأنانية إننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن كونفشيوس كان متواضعا في عظمته وكبريائه والمعرفة، عند كونفوشيوس، مكتسبة وليست إلهامية وقد أكدَ ذلك في عدة مناسبات، فقد كان يقول إنه ليس شخصا ولد عارًفا الحقيقة ، وإنما مصدر معرفته هو القراءة والدراسة الكثيفة والملاحظة لقد كان دائم الملاحظة لرفاق دربه، فيأخذ ماهو صالح عند أحدهم، ويمعن فيما هو سيء عند آخر ليصون نفسه عن إتيانه إن الإنسان يولد والمعرفة ممتنعة عليه فيما يرى ذلك كونفوشيوس، فهو يولد جاهلا أية معلومات أو حقائق علمية؛ لأن عقله في هذه الحالة أشبه ما يكون بالصفحة البيضاء، وعليه بعد ذلك أن يجتهد في معرفة هذه الحقائق عن طريق الدراسة والبحث والتحصيل ولكن كونفوشيوس، يشير من ناحية أخرى في كتاب المنتخبات إلى وجود نوعين من الحكماء :أولئك الذين ولدوا وهم ذوو معرفة ألهمتهم بها السماء، دون مجهود شخصي من جانبهم، وبغير أن يكونوا على وعي بمعرفتهم، وهؤلاء الحكماء الموحى إليهم هم الأفضل أما النوع الثاني من الحكماء، فهم أولئك الذين يتعلمون ويعملون على كسب الحكمة بدراساتهم

المتواصلة المجتهدة،وهؤلاء، في نظره، هم أبناء الأرض، الموكل إليهم عن طريق مجهوداتهم الخاصة، حماية أنفسهم من الهوى والشر فإذا نجحوا في هذا اقتربوا من درجة الحكماء الملهمين أبناء السماء، المشتملين على الأسرار الإلهية العظيمة ويرى أن حكمة وجود الحكماء الموحى إليهم هي إبلاغ قانون السماء، وهداية البشر، وإنقاذهم من الخروج عن الصراط السوي ومن أقواله :أولئك الذين يولدون حكماء أسمى أنواع الناس، ويتلوهم من ينالون الحكمة بالدراسة والاطلاع، ويتبعهم من يتغلبون على بلادتهم بالاطلاع أما من يظلون على بلادتهم فأوطأ الناس وعلى الرغم من هذا فقد حرص كونفوشيوس على أن يكون مصدر معرفته هو الدراسة والبحث، وليس التأمل النظري أو الإلهام؛ لأن محب العلم يتعلم كل يوم ما ينقصه، ولأن طريق العلم طريق شاق، لا يغني فيه التفكير عن التعلم، كما أن التعلم لا يجدي بدون تفكير فكلاهما لا يفترقان وبتعبير آخر :إن التفكير دون تعلم خطر وملل كما أن التعلم دون تفكير عدم ومن أقواله في هذا : كنت لا آكل طول النهار،ولا أنام طول الليل لأعمل فكري، وما وجدت لذلك فائدة، بل الأفضل هو التعلم اطلب العلم بالتوسع ولتكن همتك صادقة، واستفسر عما يعينك وفكر فيما يقربك فإن في ذلك مروءة كما يؤثر عنه في هذا الموضوع قوله: صرت مكبا على العلم وأنا ابن خمس عشرة، وأصبحت قائما به وأنا ابن ثلاثين، ولم أتشكك في حقائق الأشياء وأنا ابن أربعين، وعلمت القضاء والقدر وأنا ابن خمسين، وأمست أذني صاغية إلى الحق وأنا ابن ستين،وأذعنت لجميع ما تشاء نفسي ولم أتجاوز حد الاستقامة وأنا ابن سبعين ومما يدل على حبه للعلم وغرامه بالمعرفة أنه قال ذات مرة :كلما سرت مع رجلين وجدت لنفسي أستاذين: من له فضائل فهو قدوتي، ومن له رذائل فهو عبرتي وإذا كان كونفوشيوس قد آمن بمبدأ المساواة في التعليم، لتساوي الناس في الطبائع والغرائز، كما آمن أيضا، بقدرتهم على التحصيل والتفكير، دون نظر إلى أجناسهم أو ألوانهم أو أوضاعهم الاجتماعية إلا أنه قد أقر بالتفاوت بينهم في العقل والمعرفة والموهبة والتجربة

والدليل على هذا أن مدرسته كانت تضم تلاميذ من مختلف الطبقات الاجتماعية، من النبلاء ومن الفقراء معا دون تفرقة طبقية بينهم، وكان يقول وهو يستقبلهم : إنني لم أرفض قط أن أعلم أي شخص حتى لو جاءني مشيا على الأقدام، دون أن يقدم شيئًا نظير تعليمه، أكثر من اللحم الجاف وإذا كان كونفوشيوس قد اشتهر عنه الحياد، في هذا الأمر، إلا أنه لو كانت عنده مفاضلة بين طلابه، لكان من المحتمل أن تكون لمن هو أقل غنى لقد امتدح أحد طلابه لأنه استطاع برغم ارتدائه الرداء المهلهل أن يقف جنبا إلى جنب مع أولئك الذين كانوا يرتدون الفراء الثمين، دون أن يتملكه أدنى ارتباك وقد أصبح هذا الطالب، الذي يرتدي هنا ردا ءمهلهلا، فيما بعد موظَّفا كبير ا جدا يشغل منصبا هاما من أخطر مناصب البلاد، يمكن أن يتقلده شخص لم يتقلد منصبه عن وراثة ومعنى هذا أن التربية والتعليم، عنده لم تكن من أجل التربية والتعليم فحسب، بل كانت من أجل تحقيق غايات عملية تتمثل في تقلد الوظائف العامة، وحل جميع المشكلات السياسية وتحقيق المجتمع الكامل لقد كان كونفوشيوس يعد طلابه لينطلقوا إلى العالم ويكافحوا من أجل مبادئه التي تهدف إلى إقامة مجتمع كامل إن معيار قيمة الإنسان ونفعه، فيما يرى كونفوشيوس، هو قدرته على توظيف معارفه لخدمة الغايات الاجتماعية، وتطبيق هذه المعارف في أداء رسالته إذا ما أرسل سفيرا إلى الخارج، على سبيل المثال، ومن هنا حرص على تعليم طلابه علوم التاريخ والشعر والآداب العامة والفلسفة، وجهد أن يستبعد من برامجه الدراسية الموضوعات المتعلقة بالخرافات والأعاجيب وخوارق الطبيعة وتمجيد البطولة الجسدية وما شابه ذلك مما لا يفيد في التطبيق العملي، الذي هو غاية التعلم والتثقيف الذاتي وفي هذا المقام يقول :لا تهتم بعدم المنصب، بل اهتم بما يؤهلك للمنصب، ولا تهتم بجهل الناس قدرك بل اهتم بالقدر الذي يعرفونك به ولكن بالمقابل لولا التعلم والتربية لأصبحت الفضائل الأخلاقية رذائل ذميمة، بسبب الإفراط والتفريط، وانحطت على الفور :فبدون التعلم والتربية تصبح الشجاعة عصيانًا، والصراحة خشونة وسماجة، والذكاء

اضطرابا للفكر، والوفاء لامبالاة بعاقبة الأمور، والمروءة جهالة، والحكمة عدم اتساق، والإنسانية بهيمية ومن أقواله في هذا المعنى: الولع بالمروءة من غير الولع بالتعلم نتيجته الجهالة، والولع بالذكاء من غير الولع بالتعلم نتيجته اضطراب الفكر، والولع بالوفاء من غير الولع بالتعلم نتيجته عدم الاكتراث لعاقبه الأمور، والولع بالصراحة من غير الولع بالتعلم نتيجته الخشونة، والولع بالشجاعة من غير الولع بالتعلم نتيجته العصيان، والولع بالعزيمة من غير الولع بالتعلم نتيجته الإفراط في السلوك ولعل هذا يوضح لنا جوهر التربية الكونفوشيوسية ومناطها أن تكون للقاعدة الخلقية المنزلة الأولى، وأن الطالب لا يستطيع التعلم قبل أن ينجح في تحويل سلوكه إلى سلوك أخلاقي، يتمثل في حب والديه وإخوانه، وأن يكون شجاعاصادًقا صريحا ومن ساء سلوكه عجز عن بلوغ جوهر التعليم وقد حرص كونفوشيوس في هذا كله، على أن يؤكد للأشياء طابعها الأصيل من حيث الاعتدال، والتوازن، والتناسق، والتنظيم وفًقا للمنزلة بعد أن أعلن كونفوشيوس تأييده للنظام التربوي التعليمي الذي كان سائدا في الصين القديمة، بدأ بنقد حالة التعليم في أيامه، فهو يرثي لحال المدرسين في زمانه إذ يعمدون باستمرار إلى تكرار وإعادة تدريس ما درسوه بشكل مضحك، وإلى الإثقال على الطلبة بكثرة الأسئلة كما أنهم لم يعودوا يبذلون أي جهد للتعرف على ميول الطالب الطبيعية وتوجيهه الوجهة الملائمة لميوله ومقدراته؛ مما أدى بالطلبة إلى التخصص في أمور لا تناسب كفاءتهم ومقدرتهم، وضاع بالتالي كل ما كانوا ينتظرون من آمال يعلقونها على طلبتهم، ونتج عن ذلك شيوع الكراهية بين الطلبة والأساتذة، وتحوُل الطلبة إلى آلات صماء تحفظ الدروس بلا فهم، مما أدى إلى كرههم للتعليم، وتحولهم عنه في أية فرصة تسمح لهم بذلك وهذه كلها أسباب أدت إلى فشل التعليم في أيامه وينتقل من هذه المرحلة النقدية إلى عرض آرائه عن المعلم والتعليم المثاليين، ويضع كونفوشيوس لذلك أربع قواعد هامة:

١ -يجب على المعلم أن يمنع العادات القبيحة قبل أن يكتسبها الطالب، وتصبح سلوكا عاديا ذلك أن محاولة القضاء على عادة من العادات بعد أن تكون قد تكونت، محاولة فاشلة في أغلب الأحيان يجب أن تعطى المعلومات في السن الملائمة لها إذ إن تعليم مادة خاصة بسن معينة بعد فوات السنالمناسبة تعليم عديم الجدوى

٣ -يجب التدرج في إعطاء المعلومات، بحيث يبدأ المعلم بالسهل وينتهي بالصعب فالمعلومات إذا لم تعط في تدرج وتسلسل فإن هذا من شأنه أن يوجد البلبلة والتشويش في عقلية الطلبة ومعلوماتهم

٤ -يجب أن تعطى المعلومات للطلبة مجتمعين لا فرادى؛ بهدف إثارة التنافس بينهم وتشجيع المجتهدين ثم إن تعليم طالب وحده منعزلا عن بقية زملائه من شأنه أن يعمل على تضييق أفق تفكيره ويجعل معلوماته ضئيلة وتضاف إلى هذه القواعد الأربع قاعدتان تكميليتان وهما تتلخصان في:

١ -إلزام المعلم بمراقبة صحبة الطالب لمنعه من مخالطة الأشرار

٢ -التأكد من أن الطالب يقضي وقت فراغه قضاء يعود بالفائدة عليه جسميا وعقليا والمعلم المثالي هو الذي يعمل على توجيه طلبته توجيها رقيًقا دون أن يضغط عليهم، بحيث تصبح عملية التعلم عملية سهلة يعتمد فيها الطالب على نفسه ويفكر بنفسه دون الاستعانة بالآخرين وعلى المعلم الناجح أن يراعي أن من بين طلبته من يحاول أن يجهد نفسه بحفظ كثير من الموضوعات ومنهم من لا يستطيع أن يستوعب إلا أجزاء صغيرة، ومنهم من هو سريع الحفظ للمعلومات، ومن هو بطيء سريع الملل بما يؤكد التفاوت بينهم في العقليات ومستوى الذكاء، ومن هنا فإن من واجبه العمل على مراعاة ظروف كل منهم، وتشجيع الطالب النابه وتنمية الصفات الجيدة فيه، وتشجيع الضعيف ومساعدته على علاج ضعفه كما يجب على المعلم الناجح أن يعرف كيف يوضح معلوماته وينقلها إلى الآخرين وكيف يفهمها لهم بالاستعانة بالأمثلة التوضيحية والمقارنات والتشبيهات لكي يثبت

المعلومات في ذهن طلبته فكما أن المغني الجيد يجعل الناس يرددون غناءه وينصتون إليه، كذلك المربي الجيدجعل الناس يتبعون مثالياته ومذهبه، فأسلوبه واضح موجز، ملئ بالمعاني فإذا عرف المعلم كيف يكون مدرسا جيدا، استطاع أن يكون موجها وقائدا ثم حاكما وعلى ذلك يجب على القائمين بشئون الحكم في الدولة أن يحسنوا اختيار المدرسين؛ لأن حسن هذا الاختيار من الأسس التي تؤدي إلى إقامة نظام سليم ولعل من أهم الصفات التي يجب أن ُتراعَى في اختيار المدرسين الناجحين، هو أن يكون المدرس وقورا، ذا شخصية تفرض احترام الناس وإجلالهم له؛ لأن هذا هو أساس اتباع الأفراد لتعاليمه وتوجيهاته وفي ذلك يقول: إن لم يكن العالم وقورا لم يكن له هيبة ولم يكن علمه متيًنا لذلك كان ملوك الصين القدامى يعتبرون كل الأفراد رعايا وتوابع لهم، ماعدا طبقتين من الناس، هما طبقة الأطفال المقدسين، وطبقة المدرسين أما بالنسبة لطبقة الأطفال المقدسين فقد كان الملوك ينظرون إليهم على أنهم مقدسون؛ إذ كان من التقاليد المتبعة عند إقامة الطقوس الخاصة بتشييع جنازة المتوفى أو بتخليد ذكراه، أن يختار طفل يمثل روح المتوفي لكي تقام أمامه هذه الطقوس، ويعامل كما لو كان هو نفسه الشخص المتوفي، وبما أن كونفوشيوس:رواح الموتى مقدسة، كذلك كان مثل هذا الطفل مقدس؛ لأنه يمثلها أما الطبقة الثانية، فكانت طبقة المدرسين، التي لم تكن تعامل معاملة الرعايا والتوابع، شأنها في ذلك شأن طبقة الأطفال المقدسين إذ كان من التقاليد المتبعة في الصين أن المدرس مساوٍ للملك، بفضل سمو المهمة التي يقوم بها، وما تستلزمه من احترام خاص لذلك كان المدرسون هم الطبقة الوحيدة التي كان مسموحا لها أن تقف أمام الملك وجها لوجه عند تلقي الأوامر والتوجيهات الملكية، وذلك بخلاف أفراد الشعب الآخرين بما فيهم الأمراء والنبلاء والوزراء والعظماء الذين كان عليهم أن يديروا وجوههم جهة الشمال في حضرة الملك؛ احتراما وتقديرا لذاته، وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على إمعان الملوك في الصين القديمة في احترام المعلم وإجلاله ولا شك في أن آراء

كونفوشيوس في المعلم والتعليم المثاليين، تتفق في جزء كبير منها مع ما تذهب إليه كثير من النظريات التربوية الحديثة وكان كونفوشيوس، في منهجه التعليمي، يحرص دائما على إرشاد تلاميذه إلى الحقيقة عن طريق البحث الشخصي الذي يتدرج من المحسوسات إلى المعقولات، ويصعد من الماديات إلى المعنويات، مشيرا في هذا إلى برهان الحق وإلى تناقض الباطل معه إشارة غامضة، ثم يساعدهم بعد ذلك، وعن طريق المحاورة، في أن يصلوا إلى الحق بأنفسهم، ويتبينوا الباطل فيجتنبوه ومن منهجه أيضا أنه كان يستخدم المنهج القياسي، وهو المنهج المنطقي المعروف الذي يقوم على البدء بمقدمات أو مبادئ أولية مسلم بها، ثم استخلاص نتيجة تنتج عنها بالضرورة ولا يختلف كونفوشيوس هنا في تعريفه للقياس ٣٢٢ ق م عن التعريف الذي يقدمه أرسطو بعد ذلك بنحو قرنين من الزمان، للقياس في التحليلات الأولى ويمكننا، من هذه الناحية، أن نعتبر كونفوشيوس أول مفكر، في تاريخ الفكر البشري، استخدم المنهج القياسي في التفرقة بين الصواب والخطأ من الآراء، هو في هذا يعد سابَقا، بحوالي قرنين من الزمان، للفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو ، الذي شاع عنه أنه أول قائلبهذا المنهج بل زاد كونفوشيوس على ذلك بأن كان يلجأ في معظم الأحيان، إلى منهج القياس المتتابع، وهو يقوم على عدة أقيسة متتابعة يتخذ كل منها مقدمته من النتيجة التي انتهى إليها القياس السابق عليه وقد سيطر هذا المنهج المنطقي على أسلوبه في معظم كتاباته وخطبه، واستخدمه في تعليم طلبته الأخلاق والأدب والفن والفلسفة ونسوق بعض الأمثلة التي توضح أسلوبه في القياس المتتابع والتفكير المتدرج يقول كونفوشيوس عن الصفات الأخلاقية مثل الشجاعة والصدق وحب العلم والإخلاص والاستقامة وحب الإنسانية :إذا فهم الإنسان طبيعة هذه الصفات الأخلاقية فإنه سيفهم كيف ينظم سلوكه الفردي وأخلاقه، وإذا فهم كيف ينظم سلوكه الفردي وأخلاقه فإنه سيفهم كيف يحكم الناس، وإذا فهم كيف يحكم الناس فإنه سيفهم كيف يحكم الأمم والإمبراطوريات ويقول عن الصدق أو الحق المطلق،

الذي يعني به هنا الله :إن الحق المطلق غير قابل للتحطيم، ولما كان غير قابل للتحطيم فهو خالد، ولما كان خالدا فإنه موجود بذاته، ولما كان موجودا بذاته فهو لا نهائي، ولما كان لا نهائيا فهو واسع عميق، ولما كان واسعا عميًقا فهو متعالٍ روحي ويصف الطريق السليم الذي يسلكه الحاكم حتى يكون حكمه فاضلا، ويكون ذلك بأن يعمل على تطهير قلبه وتهذيب نفسه، وتثقيف ذاته، وأن يحسن في تأدية واجباته نحو أقاربه، ومعرفة طبيعة المجتمع الإنساني والقواعد التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي، ولكي يتأتى له معرفة ذلك عليه أن يسعى إلى معرفة القوانين الإلهية المنظمة لأمور الكون؛ لأن القوانين الوضعية هي التي تؤدي إلى فساد الحكم، وإشعال نار الحرب بين الدول أما المعرفة الصحيحة، فيما يرى ذلك كونفوشيوس فهي التي تؤدي وحدها إلى إيجاد الرجل الناجح السعيد، ومن ثم العائلة الصالحة، وهي التي تخرج الحكومة العادلة وتعمل في النهاية على توفير الحياة السعيدة المستقرة، وخلق عالم تسوده العدالة والمحبة والسلام يقول كونفوشيوس في وصف طريق الحاكم الصالح :ولا مناص للرجل الذي ينتمي الى طبقة الحكام من أن ينظم سلوكه وأخلاقه، وفي سبيل تنظيم سلوكه وأخلاقه عليه أن يؤدي واجباته نحو ذوي القربى، وفي سبيل تأدية واجباته عليه أن يفهم طبيعة المجتمع الإنساني والقواعد التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي، وفي سبيل فهمه لطبيعة المجتمع الإنساني والقواعد التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي عليه أن يفهم القوانين الإلهية

تاريخ الدين في الصين

وفق دراسة نادرة وهامة منشورة عام 1938 م عن التاريخ الديني في الصين، مر الدين في الصين القديمة بعدة أطوار، في الطور الأول منها كانت العبادة في التاريخ الديني المبكر للصين وفق ما تشير إليه الكتابات الصينية القديمة، تتجه إلى السماء التي تم الإشارة إليها بمرادف مكون من جذرين لغويين، أولهما، يعني

الذات أو الشخص، وثانيهما، يعني العلوي أو ما فوق في هذا الإطار التاريخي كان مرادف الإمبراطور في الصين هو ابن السماء، ولهذا انعكست العلاقة الدينية بين الإله والبشر في العلاقة السياسية بين الحاكم والمحكوم، لتتحول إلى نوع من التقديس والاحترام والتبجيل المبالغ فيه المكرس إلى الأباطرة
حللت الدراسة بعض الممارسات الدينية المتأخرة في الصين، ونقبت عن جذورها التاريخية، كطقس حرق أغصان الأشجار، حيث أشارت إلى أن أصوله تعود للإمبراطور شان عام 2255 قم، حيث أمر بحرقها تقربًا للإله الذي يظهر أحد اسمائه من خلال النقوش القديمة، بعد تحليل جذورها اللغوية بهذا المعنى: الواحد الأعلى الذي نحرق الخشب من أجله

دخلت الديانة المبكرة للصين القديمة بعد ذلك طور معتقدات تعدد الآلهة، حيث سادت مظاهر تقديس وعبادة الأسلاف، وظهرت فلسفات ومعتقدات ومذاهب دينية متعددة بعضها وافد من خارج الصين كالبوذية، وأخرى صينية خالصة كالطاوية الديانة القومية التاريخية لمعظم أبناء قومية الهان التي تشكل أكثر من تسعين في المائة من تعداد الشعب الصيني
وللطاوية تياران رئيسيان يعكس تباينهما ما سنتناوله لاحقًا في قراءتنا للكونفوشيوسية، وهما مدرسة فلسفية، نشأت أثناء الفترة الكلاسيكية لحكم أسرة تشو في الصين، والمدرسة الثانية عبارة عن مجموعة من معتقدات دينية، تطورت بعد خمسمائة سنة من ظهور المدرسة الأولى إلا أنه يظل جوهر الطاوية هو فلسفي بامتياز، حيث نشأت الأخيرة من خلال التأملات المنسوبة للفيلسوف الصيني لاوتسي، إحدى الشخصيات الرئيسية في الديانة الطاوية، والذي كان يعتقد أن هذا العالم يتكون بالأساس من خلال الشيء ونقيضه، عبر التحولات التي يفضي إليها التفاعل المتبادل لمختلف تلك الأضداد

الباب الثالث

من هو كونفوشيوس؟

ولد كونفوشيوس عام ٥٥١ قبل الميلاد في إمارة وتوفي ، الصغيرة، بولاية شانتونج لو بها عام ٤٧٩ قبل الميلاد وهو ينحدر من أسرة نبيلة، يرجع أصلها إلى الإمبراطور العظيم هوانج دي، وله أحفادا كثيرين، ونسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا ولا تزال البلدة التي ولد فيها كونفوشيوس، أي مدينة تشوفو، بولاية شانتونج، لا يعمرها حتى الآن إلا نسل ابنه الوحيد، ومنهم وزير المالية في الحكومة الصينية التي كانت قائمة في منتصف الثلاثينيات اسم كونفوشيوس، هو النطق اللاتيني لاسم الحكيمالصيني الذي نتحدث عنه، وهو يتكون من لفظين :كونج وهو اسم الأسرة التي ينتمى إليها، وفو -تسيه ، ومعناه الأستاذ المبجل أو الحكيم أو الفيلسوف فاسم كونج – فوتسيه أي الأستاذ كونج حرفه أو لكَّنه الأوربيون ويعني فصار مشهورا عندهم :كونفوشيوس إذن الأستاذ كونج أو الفيلسوف كونج أو الحكيم كونج ولقد كان كونفوشيوس ثمرة لزواج غير شرعي أو زواج لم يكن متفَّقا والتقاليد التي كانت مرعية آنذاك وكان والده من الحكام في الدولة لو ، لكنه توفي وترك كونفوشيوس صغيرا لم يتجاوز العام الثالث من عمره ولقد وصفوه، كما جاء في الأسطورة، بأنه كان له ظهر تنين، وأذنا فيل، وفم كالبحر، وأن نافورة من المياه انفجرت لتغسل الطفل حديث الولادة، الذي ولد في كهف وقادت أمه إليه روح مبشرة

نشأ كونفوشيوس وترعرع في كنف أمه التي عاشت في الكفاف، بالرغم من أن أسرته كانت تنتمي، كما أشرنا إلى أصول أرستقراطية عريقة، فلم يسعه للقيام بأود حياته وإعالة أمه الفقيرة إلا أن يعمل بعد الفراغ من المدرسة وهكذا نجد أنه منذ طفولته المبكرة قد تعود تلك الرزانة التي هي من خصائص كبار السن، وهو بهذا كان دائما يكبر عمره وبالرغم من ذلك فقد وجد متسعا من الوقت لكي يبرع في الرماية وفي العزف على الناي، وهو بهذا يعد خير معبر عن الحكمة الصينية

تسير الفلسفة والموسيقى جنبا إلى جنب لقد عُرِف عنه أنه كان منذ نعومة أظفاره، شديد الولع بالموسيقى المعبرة الجميلة ولما بلغ من العمر سبعة عشر عا ما اشتغل برعي الماشية والأغنام واهتم بحرفته مما أدى إلى زيادة إنتاج هذه الثروة الحيوانية ثم تزوج في التاسعة عشرة من عمره وفي الوقت رُقِّي أميًنا عاما على مخازن الحبوب وبعد ذلك مشرًفا عاما على الحقول والأشغال العمومية ولما كان في العشرين أنجب ابنه الوحيد، ولم يشعر نحوه ولا نحو زوجته بتعلق شديد ثم ما لبث أن طلَّق زوجته وهو في الثالثة والعشرين، ولم يتزوج بعدها أبدا إلا أنه كان، على الرغم من كثرة مشاغله وأعبائه الإدارية، يقضي جزءا كبيرا من وقت فراغه في تثقيف نفسه ذاتيا وذلك بدراسة وتحصيل علوم التاريخ والشعر والموسيقى

أما عن موضوع انفصاله عن زوجته، فيبدو أنه قد أدرك أن الفلسفة لا تستقيم مع الحياة الزوجية لصعوبة اعتماد الرجل، في تلك الأيام، في إعالة أسرته على ما تدره الحكمة عليه يبدو أن الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه ١٩٠٠ م سوف يتفق في العصر الحديث، مع ما ذهب إليه كونفوشيوس من أن ثمة شيئًا من التناقض بين الفلسفة والزواج، لقد رأى نيتشه أن الكثير من الفلاسفة قد مات بعد ولادة أول طفل لهم، وأنه إذا كان الشقاء والتعاسة والكف عن التفكير المبدع من مساوئ الزواج، فإن الهناء والسعادة والإبداع من نعم العزوبية وفي سن الثانية والعشرين من عمره قرر الاشتغال بالتعليم، واتخذ من بيته مدرسة، يلقي فيها الدروس على مريديه من مختلف الأعمار، ومن جميع أنحاء إقليم لو ومن الأقاليم البعيدة عنه وقد أخذ على نفسه تعليم تلاميذه ومريديه موضوعات التاريخ والشعر وآداب اللياقة والموسيقى، بصفة خاصة، والتي كان يؤمن بتأثيرها الفعال في الصقل الأخير لشخصية الإنسان وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون دفعه من مصروفات تحدد على أساس قدرة التلميذ على الدفع وكان لا يقبل في مدرسته إلا التلاميذ الذين يجد عندهم ميلا صادًقا إلى هذه الدراسات، وشغًفا بالعلم والمعرفة ومن أقواله، التي اشتمل عليها كتاب المنتخبات الذي ترجم إلى اللغة العربية، لأول

مرة، في عام ١٩٣٦ م، تحت اسم :كتاب الحوار ونشرته المطبعة السلفية بالقاهرة اذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول :ماذا أرى في هذا؟ فإني لا أستطيع أن أفعل له شيئًا وإني لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته، ولا أعين من لا يعني بالإفصاح عما يكنه في صدره وإذا ما عرضت ركًنا من موضوع ما على إنسان، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة أركان الباقية فإني لا أعيد عليه درسي وقد أدرك، منذ آلاف الأعوام، أن نوعين من الناس، هما وحدهما اللذان لا يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء ومن ناحيتنا نجد أن هذا الرأي سوف يتردد في العصر الحديث على لسان أعظم الفلاسفة الألمان المحدثين وهو الفيلسوف كانط آثر أن يوجه قسطا وافرا من عنايته واهتمامه إلى الطلاب من ذوي القدرات المتوسطة ومن أقواله في هذا المعنى: العباقرة لا يحتاجون إلى معونتي والأغبياء لا تجدي معهم أي معونة كما آمن كونفوشيوس بقدرة وفاعلية الفلسفة الإنسانية على إصلاح خلق وعقل من يسعى إلى دراستها بأمانة وإخلاص :وفي هذا يقول في كتاب المنتخبات وليس من السهل أن نجد إنسانًا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنسانًا صالحا ولقد بلغ عدد الذين تلقوا الحكمة وتخرجوا على يديه ثلاثة آلاف تلميذ ومريد من بينهم حوالي اثنين وسبعين كان كونفوشيوس يصفهم بأن لهم مواهب عظيمة وعقليات جبارة وقد شغل الكثير من هؤلاء العباقرة مراكز قيادية في الدولة كما كان لهؤلاء التلاميذ دور كبير في نشر مذهبه في البلاد، حتى صار مذهبا رسميا منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن العشرين، يضاف إلى ذلك قيامهم بصياغة فلسفته على الصورة التي نقلت بها إلى العالم الحديث وقد حدث لكونفوشيوس، بعد ذلك، أن التقى في إحدى أسفاره بأشهر فلاسفة الصين القدامى، وهو الفيلسوف لاو تسو صاحب كتاب عن الطريق والفضيلة ، وكان وقتذاك في السابعة والثمانين من عمره، ويقيم منفيا في تشو عاصمة الإمبراطورية الصينية،

أما عمر كونفشيوس، فكان أقل بكثير من نصف عمر لاو – تسو ، وقد تأثر كونفوشيوس الشاب كثيرا بمبادئ فلسفة هذا الفيلسوف الشيخ الذي قدم له النصيحة الآتية :لقد سمعت أن الأغنياء يهدون الناس بالمال، أما الفضلاء فيهدونهم بالنصائح وسأقدم لك بعض النصح :إن حياة الرجل الذكي الألمعي دائما في خطر؛ لأنه يميل غالبا إلى نقد الناس والرجل النابه المعروف الذي يقرأ له الناس يعرض نفسه للخطر؛ لأنه يميل إلى الكشف عن نقط الضعف فيهم، فلا تفكر إذن في نفسك دون سواها عندما تعمل كابن للعدالة أو قاضيا لها وعندما عاد إلى ولاية لو مسقط رأسه، مكث فيها خمسة عشر أمضاها في التدريس إلى جانب اشتغاله في وظيفه مستشار لأمراء الولايات والمدن الصينية الذين كانوا يطلبون نصيحته فيما يقابلونه من مشكلات إدارية وعلمية ومن المعلوم أن الصين كانت تتكون، في تلك الفترة، من ولايات وإمارات إقطاعية يحكم كل منها والٍ أو أمير، وكانت هذه الولايات والمقاطعات في نزاع مستمر وحرب دائمة، وهو ما يعرف بعصر الولايات المتحاربة ؛ لأن كل أمير أو والٍ كان يحاول توسيع رقعة مملكته على حساب الآخرين وقد نتج عن هذا شيوع الاضطراب داخل الولايات الصينية والتجاء الأمراء إلى كونفوشيوس للاسترشاد بتعاليمه ونصائحه السياسية والسؤال عن أفضل الصفات والشروط التي من شأنها إقامة الحكم الصالح وبعد ما مر كونفوشيوس بطائفة من التجارب، وتقلد عدة مناصب وزارية، كوزارة العدل ووزارة الأشغال العمومية، نتج عنها شيوع العدل والشرف والأمانة وزيادة رقعة الأرض الزراعية وتحسن إنتاجيتها، عين عام في اواخر القرن السادس قبل الميلاد رئيس وزراء دولة لو وكان وقتذاك في السنة الحادية والخمسين من عمره وقد مكَّنه هذا المنصب الجديد من أن يترجم مبادئه عمليا، وأن يحقق أفكاره العمرانية الراقية، وكان نجاحه :ساحًقا وفي ذلك تقول السجلات الصينية في لغة عاطفية وجدانية :لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلا برأسيهما واختفيا وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة

النساء وجاء الأجانب زرافات ووحداًنا من الولايات الأخرى، وأصبح كونفشيوس معبود الشعب ولم تستمر هذه التغيرات والنجاحات طويلا، ذلك أن بدءوا يحسون أمراء الولايات المجاورة لولاية لو بالقلق وبأنهم في خطر لما رأوه من عظمة ولاية لو ، والإنجازات الكبيرة التي تحققت فيها تحت حكم كونفشيوس،ومن هنا أخذوا يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للإيقاع به واستطاع وزير ماكر من وزراء دولة أن يعثر أخيرا على المكيدة التي يفرق بها بين تشي أمير لو وكونفشيوس فأرسل هدية تضم ثمانين حورية من العذراوات والراقصات والمغنيات، ومائة وعشرين جوادا تفوق الفتيات جمالا ونجحت الخطة، فأهمل الأمير شئون الإمارة، وانصرف عن الإصغاء إلى نصائح كونفوشيوس وتنبيهاته، مؤثرا عليها النظر بإعجاب إلى سيقان الحسان الجميلة أكثر من إعجابه بالفضيلة والقلوب الطاهرة؛ فأصيب الأخير بقنوط بالغ ، وقرر الرحيل بعد أن قضى سنوات خدمة رائعة، ولكنه غنى، قبل رحيله، أغنية، نابعة من الموقف الذي عجل برحيله، ومعبرة عن تفضيل البعض الجمال على الواجب والكمال فقال: احذر لسان المرأة إنك سلتدغ منه إن عاجلا وإن آجلا واحذر زيارة المرأة إنها ستصيبك إن عاجلا وإن آجلا هي هوهي هو إنني سأرحل إلى مكان آخر

هجرة كونفوشيوس

اعتاد كونفوشيوس منذ أن بدأ دعوته على الطواف في الأقاليم الصينية لا يقيم في بلد إلا على نية الخروج منه وكلما حل على أمير مقاطعة دعاه إلى السلوك الفاضل ولم يكن اضطهاد كونفوشيوس يتمثل سوى في رفض الناس لتعاليمه وعدم تقبلها، أو تقبلها بعض الوقت ثم الخروج عليها فيما بعد، وهذا هو ما عانى منه
كونفوشيوس وجعله يطوف في شتى مقاطعات الصين عله يجد من يتقبل تعاليمه، إلا أن بعض حكام المقاطعات كانوا يكرمونه ويعينونه في مناصب رفيعة كوزارة العدل

سمات شخصيته:

يعد كونفوشيوس من الشخصيات القليلة الجذابة التي تركت أثرا كبيرا على الأجيال المتعاقبة نظرا لما تحلى به من أخلاق شخصية، نستطيع أن نعرف قدر كبير عنها من أقواله المسجلة في كتاب المنتخبات الذى ترجم إلى اللغة العربية تحت اسم كتاب الحوار، ومما رواه تلاميذه عنه تميز برقة الطباع، وكان مهذبا مرحا، يحب المرح والفرح والسرور إلى أبعد الحدود، وكان متذوِّقا للفنون مثل الموسيقى والغناء، ويداوم على حضور الحفلات والطقوس الدينية التي تلعب الموسيقى فيها دورا كبيرا، كما كان يقدس قواعد الآداب والمجاملة ولكن كونفوشيوس، إلى جانب ذلك كان شديد القسوة على المنافقين، أصحاب الوجهين، الذي وصفهم بأنهم لصوص الفضيلة ، وكان يسخر من الحكام والموظفين الذين جعلوا همهم الوحيد هو ملء بطونهم بالطعام، وكان ينعتهم بأنهم حقائب أرز وقال لتلاميذه، عن أمثال هؤلاء ذات يوم :ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم، دون أن يجهد عقله في شيء لا يتواضع في شبابه التواضع الخليق بالأحداث، ولا يفعل في رجولته شيئًا خليقًا بأن يأخذه عنه غيره، ثم يعيش إلى أرذل العمر؛ إن هذا الإنسان وباء ومن رأيه أن المقامرين – أنفسهم – يفعلون شيئًا فهم أفضل -إلى حد ما – من هؤلاء الخاملين الذين لا يستخدمون عقولهم أبدا، مؤثرين الاستمتاع بأطايب الطعام، وإغراق أنفسهم في ألوان الترف، وابتزاز الأموال من الشعب وقد عُرِف عن كونفوشيوس حبه للجمال، والتأنق في الملبس، حتى إنه كان يعتبر مجددا في فن الملبس، يقلد الجميع ذوقه، كما كان محافظا على كرامته وحريصا على حسن اختيار رفاقه خاصة أولئك الذين يستطيع أن يتعلم منهم ومن أقواله :إنني دائما لا أسير برفقة ثلاثة أشخاص إلا إذا اكتشفت أني أستطيع أن أتعلم شيئًا من أحدهم لقد كان من أبرز صفاته حبه للدراسة والبحث، وأنه شخص لم يولد عارًفا للحقيقة، ولكنه يجتهد في القراءة والتعليم والبحث عن المعرفة والوصول إلى الحقيقة ما وجد إلى ذلك سبيلا

أسطورة مولده وأحفاده

تصف الأقاصيص الصينية الخيالية، كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده غير الشرعي، وكيف كانت الهولات تحرسها والأرواح الإناث تعطي لها الهواء وهي تلده في أحد الكهوف وتقول تلك الأقاصيص إنه كان له ظهر تنين، وشفتا ثور، وفم في سعة البحر، وإنه ولد من أسرة هي أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة إلى الآن لأنه كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون من نسل الإمبراطور العظيم هوانج- دي، وإن له أحفاداً كثيرين، وإن نسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا ولقد بلغ عدد من تناسل منهم منذ مائة عام أحد عشر ألفاً من الذكور، ولا تزال البلدة التي ولد فيها حتى هذا اليوم لا يعمرها إلا نسله- أو بعبارة أدق إلا نسل ابنه الوحيد؛ ومن نسله وزير المالية في الحكومة الصينية القائمة للآن في نانكنج

حياة كونفوشيوس:

نشأ كونفوشيوس وترعرع في كنف أمه التي عاشت في الكفاف، بالرغم من أن أسرته كانت تنتمي، كما أشرنا إلى أصول أرستقراطية عريقة، فلم يسعه للقيام بأود حياته وإعالة أمه الفقيرة إلا أن يعمل بعد الفراغ من المدرسة وهكذا نجد أنه منذ طفولته المبكرة قد تعود تلك الرزانة التي هي من خصائص كبار السن، وهو بهذا كان دائما يكبر عمره وبالرغم من ذلك فقد وجد متس عا من الوقت لكي يبرع في الرماية وفي العزف على الناي، وهو بهذا يعد خير معبر عن الحكمة الصينية تسير الفلسفة والموسيقى جنبا إلى جنب لقد عُرف عنه أنه كان منذ نعومة أظفاره، شديد الولع بالموسيقى المعبرة الجميلة ولما بلغ من العمر سبعة عشر عاما اشتغل برعي الماشية والأغنام واهتم بحرفته مما أدى إلى زيادة إنتاج هذه الثروة الحيوانية ثم تزوج في التاسعة عشرة من عمره وفي نفس الوقت رُقِّي أميًنا عاما على مخازن الحبوب وبعد ذلك مشرًفا عاما على الحقول والأشغال العمومية

ولما كان في العشرين أنجب ابنه الوحيد، ولم يشعر نحوه ولا نحو زوجته بتعلق شديد ثم ما لبث أن طلَّق زوجته وهو في الثالثة والعشرين، ولم يتزوج بعدها أبدا إلا أنه كان، على الرغم من كثرة مشاغله وأعبائه الإدارية، يقضي جز ءا كبي را من وقت فراغه في تثقيف نفسه ذاتيا وذلك بدراسة وتحصيل علوم التاريخ والشعر والموسيقى ولما بلغ التاسعة والستين من عمره، وبعد أن أنهكته هذه الأسفار المختلفة، حظي كونفوشيوس في النهاية بكل تقدير وترحاب وإجلال من دوق مدينة لو الجديد، ولكنه أوضح له أنه سيقضي ما تبقى له من أيام حياته في تقديم النصح لزعماء لو ووزارئها، وجمع نسخ الكتب القديمة المقدسة التي سبق أن أشرنا إليها، باعتبارها مصادر الفلسفة الصينية، كما اهتم في سنوات عمره الأخيرة، بوضع نظام تربوي جديد، وكتابة تاريخ الصينيين ولم يزعم كونفوشيوس أنه يبتكر شيئًا جديدا، حتى إنه سمى نفسه ناقل الأفكار وليس صانعها وقد سره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله،وفي ذلك يقول :لقد كنت في الخامسة عشرة من عمري مكبا على العلم، وفي الثلاثين وقفت ثابًتا لا أتزعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضوا طيعا لتلك الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل

استشعر كونفوشيوس ذات صباح الموت قبل أن يعاجله، وكان قد بلغ وقتها الثالثة والسبعين من عمره، وأنشد هذه القطعة الحزينة قبل موته: لابد للجبل العظيم أن ينهدم ولابد للدعامة القوية أن تنكسر ولابد للرجل الحكيم أن يذبل كما يذبل النبات

ثم أوى إلى فراشه ومات في نهاية أيام عام ٤٧٩ قبل الميلاد، ودفن بمقاطعة تشوفو في دولة لو وظل تلاميذه في حداد مدة ثلاث سنوات يبكون كما يبكي

الأبناء آباءهم، وبعد مرور هذه المدة غادروا أكواخهم التي أقاموها حول قبره الذي لا يزال يزار حتى الآن

فلسفته

كثيراً ما وصف كونفوشيوس بأنه أحد مؤسسي الديانات، وهذا تعبير غير دقيق إن لم يكن خاطئاً فمذهبه ليس ديناً فهو لا يتحدث عن إله أو السماوات وإنما مذهبه هو طريقة في الحياة الخاصة والسلوك الاجتماعي والسلوك السياسي ومذهبه يقوم على الحب - حب الناس وحسن معاملتهم والرقة في الحديث والأدب في الخطاب ونظافة اليد واللسان وأيضاً يقوم مذهبه على احترام الأكبر سناً والأكبر مقاماً، وعلى تقديس الأسرة وعلى طاعة الصغير للكبير وطاعة المرأة لزوجها ولكنه في نفس الوقت يكره الطغيان والاستبداد وهو يؤمن بأن الحكومة إنما أنشئت لخدمة الشعب وليس العكس وأن الحاكم يجب أن يكون عنده قيم أخلاقية ومثل عليا ومن الحكم التي اتخذها كونفوشيوس قاعدة لسلوكه تلك الحكمة القديمة التي تقول : أحب لغيرك ما تحبه لنفسك

يعتبر كنفوشيوس الفضيلتين الهامتين هما جن ولي والرجل المثالي يسير حياته طبقا لهما وقد ترجمت جن بالحب أو الاهتمام الحميم باخواننا البشر، أما لي فهي تصف مجموعة من الأخلاق والطقوس والتقاليد واللباقة والحشمة

وكان كونفوشيوس محافظاً في نظرته إلى الحياة فهو يرى بأن العصر الذهبي للإنسانية كان وراءها - أي كان في الماضي وهو لذلك كان يحن إلى الماضي ويدعو الناس إلى الحياة فيه ولكن الحكام على زمانه لم يكونوا من رأيه ولذلك لقي بعض المعارضة وقد اشتدت هذه المعارضة بعد وفاته ببضع مئات من السنين، عندما ولي الصين ملوك أحرقوا كتبه وحرموا تعاليمه ورؤوا فيها نكسة مستمرة لأن الشعوب يجب أن تنظر أمامها بينما هو يدعو الناس إلى النظر إلى

الوراء ولكن ما لبثت تعاليم كونفوشيوس أن عادت أقوى مما كانت وانتشر تلاميذه وكهنته في كل مكان واستمرت فلسفة كونفوشيوس تتحكم في الحياة الصينية قرابة عشرين قرناً - أي من القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن التاسع عشر بعد الميلاد

كونفوشيوس هو الذي حقق سلاماً وأمناً داخلياً أكثر من عشرين قرناً للصين وقد فشلت الكونفوشية أن تترك أثراً يذكر خارج الصين وفي زمن أسرة هان المالكة درج الأباطرة الصينيون على اختيار موظفي الدولة بطرح امتحان يعتمد إلى حد كبير على معرفة تعاليم وآداب كنفوشيوس ولكن انحدرت قيمة كنفوشيوس في الوقت الحاضر وذلك لأن الصين الشيوعية هاجمت كنفوشيوس وتعاليمه

طريقة الرجل الأعلى

إذن فالحكمة تبدأ في البيت، وأساس المجتمع هو الفرد المنظم في الأسرة المنتظمة، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته في أن الرُقيّ الذاتي أساس الرُقيّ الاجتماعي ؛ ولما سأله تزه لو ما الذي يكون الرجل الأعلى؟ أجابه بقوله أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام ونحن نراه في مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالي كما يراه هو جزءاً جزءاً- والرجل المثالي في اعتقاده هو الذي تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منهما الحكيم والإنسان الكامل الأسمى في رأي كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث كان كل من سقراط ونيتشه والمسيح يرى الكمال في كل واحدة منها بمفردها؛ وذلك هو الذكاء والشجاعة وحب الخير وفي ذلك يقول: الرجل الأعلى يخشى ألا يصل إلى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر وهو واسع الفكر غير متشيع إلى فئة ويحرص على ألا يكون فيما يقوله شئ غير صحيح ولكنه ليس رجلاً ذكياً وحسب ، وليس طالب علم ومحباً للمعرفة وكفى ، بل هو ذو خلق وذو ذكاء فإذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان جلفاً، وإذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب

على الصفات الجسمية تمثلت فيه أخلاق الكتبة؛ أما إذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب وامتزجت هذه بتلك كان لنا منه الرجل الكامل الفضيلة فالذكاء هو الذهن الذي يضع قدميه على الأرض وقوام الأخلاق الصالحة هو الإخلاص، وليس الإخلاص الكامل وحده هو الذي يميز الرجل الأعلى إنه يعمل قبل أن يتكلم، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل ولدينا في فن الرماية ما يشبه طريقة الرجل الأعلى ذلك أن الرامي إذا لم يصب مركز الهدف رجع إلى نفسه ليبحث فيها عن سبب عجزه إن الذي يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما في نفسه؛ أما الرجل المنحط فيبحث عما في غيره والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته، ولا يحزنه ألا يعرفه الناس، ولكنه مع ذلك يكره أن يفكر في ألاّ يذكر اسمه بعد موته وهو متواضع في حديثه ولكنه متفوق في أعماله قل أن يتكلم، فإذا تكلم لم يشك قط في أنه سيصيب هدفه والشيء الوحيد الذي لا يدانى فيه الرجل الأعلى هو عمله الذي لا يستطيع غيره من الناس أن يراه وهو معتدل في قوله وفعله والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط في كل شيء؛ ذلك أن الأشياء التي يتأثر بها الإنسان كثيرا لا حصر لها؛ وإذا لم يكن ما يحب وما يكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته إلى طبيعة الأشياء التي تعرض له والرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريقاً عاماً؛ ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانوناً عاماً، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال

تقويم الأسماء أو التعريف

لكونفوشيوس نظرية طريفة هي نظرية تقويم أو تدقيق الأسماء ، وتقتضي هذه النظرية أن يحقق كل موجود غايته التي خلق من أجلها، وأن يلزم مكانه وبمقدار حظ كل موجود من تحقيق غايته يكون حظه من الاسم الذي يطلق عليه، فإذا أجاد هذا الموجود في أداء دوره، فإن ذلك يقوي من مركزه الثابت فالحاكم الذي يؤدي واجبات وظيفته، ويحقق الرفاهية والسعادة لشعبه، هو وحده الذي يمكن أن يسمى حاكما، فإذا قصر في ذلك، وأخطأه التوفيق، أصبح لا من حق الشعب فحسب، بل

من واجبه أن ينحيه من عمله، ويسلبه صفة الحاكم، وأن يبحث عن شخص آخر ليتولى وظيفة الحكم ولما كانت رفاهية الدولة في الصين، تعتمد على رضا السماء، فإن فشل الإمبراطور أو الملك ابن السماء، في القيام بواجبات وظيفته، تتسبب عنه سلسلة من الاضطرابات والمصائب التي تلحق بالشعب، وعلى العكس من ذلك فإن أهلية خلفه في تولي الحكم، وحقه في هذا المنصب، يظهر في حسن أدائه لدوره ونجاحه في القضاء على الفوضى والفقر، وإعادة النظام والخير والرفاهية وكذلك الحال في بقية فئات الشعب، كالعمال والزراع والصناع، بمقدار حظهم من تحقيق غاياتهم يكون حظهم من الاسم الذي يطلق عليهم فإذا عجزوا عن تحقيق غاياتهم، افتقدوا أسماءهم فالأسماء عنده، ليست مجرد تمثيل لأشياء، بل إنها صميم ماهيات الأشياء ذاتها لقد عرف عن كونفوشيوس حبه للتدقيق؛ لذلك وجه كل جهوده إلى توضيح الأدوار الوظائف الاجتماعية المختلفة، وشدد على ضرورة التزام كل مخلوق حدوده حسب عمله ومكانته في المجتمع ، وذلك بأن يتبوأ الملك المركز الخليق به، ولا يتجاوز النبلاء والوزراء حدود أعمالهم واختصاصاتهم، ويجب على الرعية أن تسلك مسلك الرعية، والوالد مسلك الوالد والزوجة مسلك الزوجة، والابن مسلك الابن فإذا ما كذب الفرد على اللقب الذي يحمله، وتقاعس عن تحقيق الغاية التي خلق من أجلها، اضطربت الأمور كلها، وعمت الفوضى وسادت الشرور المجتمع فانتظام دور الدولة واستقامة شئونها، مرهون بقيام كل مخلوق بأداء واجبه في الحياة، وبأن تتطابق أسماء الأشياء مع مسمياتها وفي ذلك يقول :وإذا لم تكن الأسماء صحيحة، لا يوافق الكلام حقائق الأشياء، وإذا لم يوافق الكلام حقائق الأشياء لا تتم الأمور، وإذا لم تتم الأمور لا تزدهر الآداب والموسيقى، وإذا لم تزدهر الآداب والموسيقى لا تنزل العقوبات على من يستحقها، وإذا لم تنزل العقوبات على من يستحقها لا يعرف الرعية كيف يحركون أيديهم وأرجلهم ولذلك يعتبر الرجل الكامل الخلق ضروريا أن توافق الأسماء مسمياتها حتى يمكنه أن يتكلم بها، وأن يعمل بما يتكلم، والرجل الكامل

الخلق لا يتهامل في كلامه وبهذا يتضح أنه لا يوجد أحد أكثر من كونفوشيوس استطاع التدليل على أهمية سلوك الكائنات فيما يتعلق بالتعبير عن جوهرها ومصيرها، لضرورة المحافظة على أسمائها، وضرورة وضع صفاتها الصحيحة واحترامها، ويرى أن هذا من أهم وظائف العاهل، وأنه أساس كل عدل وحقيقة وبناء على ما سبق ينبغي إعطاء الكلمات معناها الدقيق، بحيث تتطابق الأسماء مع الواقع تطابُقا دقيًقا، وينتفي الخلط والالتباس، وتظهر الحقائق واضحة جلية فلكي تصبح اللغة وسيلة للتواصل بين الناس، والتعبير عن أغراضهم، يجب أن يكون المعنى واضحا في الكلمة، وواضحا في الجملة، وأن يقدم في غير إبهام في الكلام وفي ذلك يقول كونفوشيوس :لا يطلب من الكلام إلا الدلالة على المعنى المقصود ولكن الناس يخونون الكلام دوما؛ ولذا تكف الكلمات عن الدلالة على معناها، ويفترق الوجود عن الكلام إن الكارثة تصيب كل شيء، عندما يصاب الكلام بالفوضى فعندما تكون الكلمات تسميات، تصورات غير دقيقة، وتكون الأحكام غير واضحة، والآثار غير خصيبة، والعقوبات في غير محلها، يتعذر على الشعب أن يعرف أيان هو من الأمورويرى كونفوشيوس أن الحاكم النبيل الصالح، باعتباره الرجل الأوحد من الوجهة النظرية، هو الذي يتخير الكلمات على نحو لا يدع أي مجال للخلط أو اللبس، وهو الذي يضع الأسماء في تناسب حسب مطابقتها للأشياء، ويصدر أحكامه على نحو يمكن من ترجمتها، دون تردد، إلى أعمال، ولا يطيق أدنى عدم دقة في خطاباته فإذا كانت التسميات صحيحة، استطاع كل فرد القيام بواجبه، وسار كل شيء في الدولة سيرا منتظما وقد تطورت نظرية تقويم الأسماء، المنطلقة من منطلق أخلاقي والمتجهة صوب هدف عملي إلى عمل متواصل، وإلى جهد دءوب، لتعريف المصطلحات، وتحليلها بغية التوصل إلى فهم دقيق لمعانيها ولا يخفى على باحث مدقق أن تمييز معاني الألفاظ أو تحديد الكلمات أو التعريف، من أهم الموضوعات اللغوية

المنطقية بل الفلسفة في جوهرها بناء من تعريفات أو قل هي وصف لطريقة التي تتم بها صياغات التعريف ولا شك أن هناك تشابها بين دعوة كونفوشيوس لنا بضرورة استعمال الكلمات استعمالا صحيحا، وتحديد مدلولاتها تحديدا دقيقًا بحيث لا توقع الأسماء على غير مسمياتها، وبين مطالبة كثير من مفكري العصر الحديث أمثال رسل وفتجنشتين اللذان يذهبان إلى القول بأن مصدر الشرور والمصائب الاجتماعية، إنما يتمثل في الاستخدام غير الدقيق للكلمات، وعدم إعطائها معناها الدقيق الواضح وفي ذلك يقول برتراند رسل : والمطلب الأول الذي يجب أن يتحقق في اللغة المثالية، هو أن يكون هناك اسم واحد لكل شيء بسيط، بحيث لا يشير نفس الاسم لشيئين بسيطين مختلفين فالاسم رمز بسيط بمعنى أنه لا يتكون من أجزاء تكون هي نفسها رمو زا ويرى فتجنشتين : أن الاستخدام الصحيح للكلمة هو الذي يعطي لها معنى، من ذلك :إنني إذا قلت : أعطني السكر ، وقلت :أعطني اللبن ، لوجدنا أن كل عبارة من العبارتين السابقتين لها معنى، أما إذا قلت لبن سكر فإن ذلك لا يكون له معنى وهكذا فعلى الإنسان أن يستخدم الكلمات بطريقة صحيحة وإلا أصبحت العبارة التي فيها هذه الكلمات خالية من المعنى ويرى هنرى برأن الكلمة ذات المعنى الواضح المحدد بقيمتها التصويرية، وقدرتها على الإفهام، لها نفس المزايا التي للورق النقدي، ولكنها محفوفة مثله بالأخطار، من مقدمة برتداند رسل لكتاب فتجنشتين : رسالة منطقية ، فلسفية، بمعنى أنها إن كانت خالية من الحقيقة صارت مجرد أنفاس صوتية أي خيالا هو أول فيلسوف صيني يفلح في إقامة مذهب يتضمن كل التقاليد الصينية عن السلوك لاجتماعي والأخلاقي ففلسفته قائمة على القيم الأخلاقية الشخصية وعلى أن تكون هناك حكومة تخدم الشعب تطبيقاً لمثل أخلاقي أعلى ولقد كانت عاليمته وفلسفته ذات تأثير عميق في الفكر والحياة الصينية والكورية واليابانية والتايوانية والفيتنامية ويلقب بنبي الصين وكان كونفوشيوس محافظاً في نظرته إلى الحياة فهو يرى أن العصر

الذهبي للإنسانية كان في القدم وراءها، أي كان في الماضي وهو لذلك كان يحن إلى الماضي ويدعو الناس إلى الحياة فيه ولكن الحكام على زمانه لم يكونوا من رأيه ولذلك لقي بعض المعارضة وقد اشتدت هذه المعارضة بعد وفاته ببضع مئات من السنين، عندما حكم الصين ملوك أحرقوا كتبه وحرموا تعاليمه، ورأوا فيها نكسة مستمرة لأن الشعوب يجب أن تنظر أمامها، بينما هو يدعو الناس إلى النظر إلى الوراء، ولكن ما لبثت تعاليم كونفوشيوس أن عادت أقوى مما كانت وانتشر تلاميذه وكهنته في كل مكان واستمرت فلسفتة تتحكم في الحياة الصينية قرابة عشرين قرناً، أي من القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن التاسع عشر بعد الميلادأما إيمان أهل الصين بفلسفتة فيعود إلى سببين:أولا: أنه كان صادقاً مخلصاً وثانياً: أنه شخص معقول ومعتدل وعملي، وهذا يتفق تماماً مع المزاج الصيني، بل هذا هو السبب الأكبر في انتشار فلسفته في الصين وهو بذلك كان قريباً منهم، فلم يطلب إليهم أن يغيروا حياتهم أو يطوروها وإنما هو أكد لهم كل ما يؤمنون به فوجدوا أنفسهم في تعاليمه، ولذلك ظلت فلسفتة صينية ولم تتجاوزها إلا إلى اليابان وكوريا ولكن هذه الفلسفة قد انحسرت تماماً عن الصين بعد أن تحولت إلى الشيوعية واتجهت الصين نحو المستقبل وانتزعت نفسها من هذه الديانة وذلك بالبعد عن الماضي ومسالمة الناس في الداخل والخارج ولكن تظل فلسفة كونفوشيوس هي التي حققت سلاماً وأمناً داخلياً أكثر من عشرين قرناً للصين وقد فشلت الكونفوشيسية أن تترك أثراً يذكر خارج الصين

مهنته

عندما كبر عمل موظفاً في الحكومة ثم اعتزل العمل الحكومي وبعدها أمضى ستة عشر عاماً من عمره يعظ الناس متنقلاً من مدينة إلى أخرى وقد ألتف حوله عدد كبير من الناس، و لما بلغ الخمسين من عمره عاد إلى العمل في الحكومة و لكن استطاع بعض الحاقدين عليه أن يطردوه من الحكومة، فترك لهم البلاد كلها

وأمضى بعد ذلك ثلاثة عشر عاماً مبشراً متجولاً ثم عاد ليقيم في بلدته الخمس سنوات الأخيرة من عمره وتوفى سنة 479قم

يحذق فيه الرماية والموسيقى؛ وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع مرة إلى لحن مطرب، فتأثر به تأثراً حمله على أن يمتنع عن أكل اللحوم، وظل بعدئذ ثلاثة أشهر لا يذوق فيها اللحم أبداً ولم يكن يتفق اتفاقاً تاماً مع نيتشه في أن ثمة شيئاً من التناقض بين الفلسفة والزواج، ذلك أنه تزوج في التاسعة عشرة من عمره، ولكنه طلق زوجته وهو في الثالثة والعشرين، ويلوح أنه لم يتزوج بعدها أبداً ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم، واتخذ داره مدرسة له، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة وكانت الموارد التي يشملها برنامجه ثلاثاً: التاريخ والشعر وآداب اللياقة

ولد كونفوشيوس باسم كونك - فو - دزه وكان أتباعه وتلامذته يدعونه كونك المعلم

الوحي ونبوة كونفوشيوس

وفي مجلس ضم طائفة من مريديه تنهد وقال ليس هناك من يعرفني، فسأله أحدهم عن السبب فأجاب: إنني لا أجأر بالشكوى ضد الشعائر ولا ألقي باللوم على الناس، إن مطالعاتي ودراساتي – وإن كانت متواضعة – تخترق أعلى مكان ولعلي – قبل كل شيء – معروف لدى السماء ووصف نفسه بأنه مجرد ناقل وليس مبدعا ووردت بمأثورات كونفوشيوس عبارات يتحدث فيها عن السماء، معبود الصين الرئيسي ويبدو من استقراء كتاباته أنه كان يحس بأن السماء قد استودعته رسالة إبراء العالم الصيني من أوجاعه، وآمن بأن السماء لن تخذله وفي ذات مرة أظهر استهجانه لعدم ثقة أحد به لكنه أضاف بأن السماء تفهمه ولقد انبهر المبشرون الغربيون عندما علموا ما عند الصينيين من حكم موروثة ووصايا

وآراء خلقية سامية ولذا قرروا أن الصينيين لا بد أن قد بعث فيهم رسل ولقد أخذوا لهذا يوازنون بين التوراة والكتب الصينية في الأخلاق والحكم والوصايا بل إن كونفوشيوس قسم الناس بالنسبة للمعرفة إلى أربع درجات فقال عن صاحب الدرجة الأولى: رجل وهبته السماء المعرفة وأوتي الإلهام وهي من أعلى الدرجات

الباب الرابع
الأخلاق

كان للأخلاق الصينية فضل كبير في تماسك الصين الاجتماعي والسياسي واحتفاظها باستقلالها منذ أربعة آلاف سنة حتى الآن وقد ميز الأمة الصينية تحول النظريات والنظم فيها إلى أخلاق عامة في الشعب كله، بلغت درجة عالية من الرقي والسمو، قل أن نجد له مثيلا عند الشعوب الأخرى وقد ربط الصينيون المظاهر الطبيعية بالفضائل والقيم الأخلاقية إلى حد كبير بنا ء على تصورهم أن السماء والأرض والإنسان يرتبط كل منها بالآخر برباط محكم وثيق، ومن هنا فإن أي اضطراب بسيط يحدث في إحداها يتردد صداه في جميع جزئيات الأخريين فعلى سبيل المثال إذا اقترف إنسان ما جريمة من الجرائم، مبتعدا بذلك عن الطريق السوي، الذي هو صوت الطبيعة أو صوت السماء، حدث في الحال اضطراب في السماء والأرض يتمثل في شكل انتشار الأوبئة والجدب وحدوث الزلازل والبراكين والأعاصير والكسوف والخسوف، وليس كل ذلك الاضطراب إلا تعبيرا عن غضب الطبيعة عن ابتعاد الإنسان عن الصراط المستقيم، واحتجا جا على ما يقترفه من جرائم ولهذا يقول :أونج فان أو القاعدة العظمى، وهي أقدم وثيقة فلسفية صينية :إن سلوك احترام من يستحق الاحترام يجلب الغيث في الوقت المراد، والتبصر يجلب الحرارة في الوقت المراد، والتمرن على التأمل يجلب البرودة في الوقت المراد، وحكمة الملك تجلب الهواء في الوقت المراد، ولكن الفظاظة تديم المطر من غير انقطاع، والكسل يديم الحرارة من غيرانقطاع، والتهوس يجلب البرد من غير انقطاع، واحتقار ما يستحق الاحترام يجلب الجدب، والحماقة تجلب العاصفة هكذا ارتَدت الأخلاق عند الصينيين، نتيجة ربطهم المظاهر الطبيعية بالفضائل الأخلاقية، إلى الواجب، الذي يلزم كل إنسان أن يكون فاضلا، يحرر سلوكه الأخلاقي من قيود الميول والأهواء، حتى لا يكون مجلبة للكوارث الطبيعية من كسوف وخسوف أو زلازل أو أعاصير أو جدب أو

أوبئة، فتشقى بسببه الأمة جمعاء وتتحقق الفضيلة عندهم عن طريق مجاهدة النفس، وتطهير القلب من آفات الرذائل، والتجمل بالفضائل، واتباع الصراط السوي في كل شيء وهكذا يظهر لنا أن حظ الإنسان في الحياة يقوم على ارتباط الفضيلة والواجب والخلق الخير، عندهم، مغروز في طبائع البشر، والإنسان خير بطبيعته؛ لأنه جزء الطبيعة، والطبيعة هي الإله ولكن إذا كان النبات أو الحيوان مجب را على اتباع طبيعته الخيرة، فإن الإنسان، باعتباره كائًنا مفكرا، يتمتع بالحرية والاختيار، فإنه ليس مجبرا على اتباع الصراط السوي في كل شيء ذلك أن الخير الموجود في داخله، ليس كامل التكوين، إنما هو موجود على هيئة استعداد فقط يضعف بالإهمال ويقوى بالمران، وينمو بالتربية الحسنة، وفي هذه الحالة تتحول الفضيلة أو الخير الموجود في داخله، إلى طبيعة عملية له وبهذا سبق الصينيون الرواقيين إلى هذه النظرية بعدة قرون، حيث أكد هؤلاء الأخيرون أن الإنسان خير بفطرته، وأنه جزء من الطبيعة التي هي الإله الذي لا يقصد لغير الخير، وأن الشر مرجعه إلى الإنسان وحرية اختياره كما سبقوا أيضا جان جاك روسو إلى القول بأن الشر ليس أصيلا في طبائع البشر، ومن الممكن في رأيهم أن يتجنب الإنسان الوقوع في الشر لو استمع إلى صوت العقل واستجاب لحكمه، ومن هنا كانت مسئولية الإنسان عن أفعاله والإله الأعلى عند الصينيين هو المثل الأعلى في كمال الأخلاق وسموها، فهو خير كله، رحيم، وحكيم، وعادل، ومن هنا كان تنزيههم إياه عن القسوة والمحسوبية والظلم فمن المستحيل مثلا أن يوقع العقاب بإنسان لم يقترف جريمة أو أن يعفو عن آثم لم يقلع عن إثمه، كما كان يفعل آلهة البابليين والعبرانيين، القساة، غلاظ الأكباد، وإنما هو إله فاضل رحيم يحاسب كل إنسان وفًقا لما قدمت يداه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فيمنح النعمة للأخيار، ويقسو على الأشرار وفي هذا يقول أحد كتبهم القديمة، وهو كتاب شو – كينج ما نصه :إن الفضيلة وحدها هي التي تؤثر في السماء، وإنه لا يوجد أمام الفضيلة البتة شيء بعيد بحيث تعجز عن اللحوق به، وإن المتكبر منخفض،

والمتواضع مرتفع، فإذا لاحظت ذلك، فإنك ستسير على صراط السماء ومن أهم الفضائل الأخلاقية الصينية فضيلة الرحمة لجميع الخلق وقد هاجمت هذه الأخلاق العنف والقسوة، وأمرت بالرحمة في المعاملات، وألحت على إفهام الأقوياء والأغنياء أن الضعفاء والفقراء خير منهم، وأن المظاهر الخداعة من غنى وصحة وحظ سعيد ونحوه تخفي وراءها سرا غامضا هو الخيرية ومن هذا ما يقوله كتاب التغيرات: إن الهواء الذي يصفِّر في السماء، إنما هو تصوير قوة الرجل الذي يظهر صغيرا، وإن الرجل الذي يمشي فوق ذيل النمر دون أن يعضه هو الذي سينجح، وإن التواضع يخلق النجاح، وإن الحكيم المتواضع يستطيع أن يجتاز البحر الأعظم هذه الرحمة التي نصت عليها الأخلاق الصينية، ليست هي الرحمة التي تؤدي إلى الضعف، وإنما هي الصلابة في تحقيق الواجب والتلطف مع الثبات، والحزم في السلطان مع الحكمة وسهولة الانقياد مع القوة، والشدة مع الإخلاص، والشجاعة مع العدالة، والثبات في وداعة أو نستطيع أن نقول بأنها هي الاعتدال أو التوسط في كل شيء، وهذا التوسط، في نظرهم، هو الفضيلة في ذاتها وفيها يقول كتاب التغيرات :إن احتمال فظاظة الأفظاظ في وداعة، واختراق الأنهار في ثبات وشجاعة وعدم إهمال البعيد، وعدم الانشغال بالغير، كل هذا مجتم عا هو الذي يحقق السير في طريق الاعتدال الأوسط

إن الأخلاق الصينية إذا كانت قد تميزت بالمثالية من ناحية، فإنها من ناحية أخرى انطبعت بالطابع العلمي النفعي، الذي يهدف إلى سعادة المجتمع وقد تسرَع بعض الباحثين في الحكم على هذه الأخلاق فاتهمها بالنفعية الجافة، وذلك بالنظر إلى أن كتبهم تنص على أن السعادة هي غاية الفضيلة، ولكن النظرة الفاحصة المدققة توضح أن هذه السعادة المقصودة ليست هي سعادة الفرد وإنما هي سعادة المجتمع، وأن الخيرية، تعد في نظرهم، من أسمى الفضائل، في حين تعد الأنانية من أقبح الرذائل

السياسة

ويعتقد كنفوشيوس أن هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يعيدوا بناء الأسرة وأن ينقذوا الدولة فالمجتمع يقوم على إطاعة الأبناء آباءهم ؛ والزوجة زوجها ؛ فإذا ذهبت هذه الطاعة حلت محلها الفوضى وليس ثمة ما هو أسمى من قانون الطاعة هذا إلا شيء واحد وهو القانون الأخلاقي في وسع الابن وهو في خدمة أبويه أن يجادلهما بلطف ؛ فإذا رأى أنهما لا يميلان إلى اتباع نصيحته زاد احترامه لهما ، من غير أن يتخلى عن قصده ؛ فإذا أمر الوالد ابنه أمراً خطأ وجب عليه أن يقاومه ، وعلى الوزير أن يقاوم أمر سيده الأعلى في مثل هذه الحال وفي هذا القول يضع كنفوشيوس مبدأ من مبادئ منشيس التي تقرر حق الناس المقدس في الثورة على أن كنفوشيوس لم يكن بالرجل الثوري النزعة ؛ ولعله ما كان يظن أن من ترفعهم الثورة لم يخلقوا من طينة غير طينة من تطيح بهم ولكنه رغم هذه الميول كان جريئاً فيما كتبه في كتاب الأغاني: قبل أن تفقد ملوك أسرة شانج قلوب الشعب كانوا أحباء الله فليكن فيما حل ببيت شانج نذير لكم ؛ إن الأمر العظيم لا يسهل دائماً الاحتفاظ به والشعب هو المصدر الفعلي الحقيقي للسلطة السياسية ، ذلك أن كل حكومة لا تحتفظ بثقة الشعب تسقط لا محالة عاجلاً كان ذلك أو آجلاً وسأل تزه- كونج ، عن الحكم فقال له المعلم: لا بد للحكومة من أن تحقق أموراً ثلاثة ، أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام ، وكفايتهم من العتاد الحربي ، ومن الثقة بحكامهم فقال تزه- كونج: فإذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط ، فأي هذه الثلاثة يجب أن تتخلى عنه أولاً؟ فأجاب المعلم: العتاد الحربي وسأله تزه- كونج مرة أخرى: وإذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين فأيهما يجب أن تتخلى عنه؟

فأجاب المعلم: فلنتخل عن الطعام ؛ ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوماً على البشر ، أما إذا لم يكن للناس ثقة بحكامهم فلا بقاء للدولة ويرى كنفوشيوس أن المبدأ الأول الذي يقوم عليه الحكم هو نفس المبدأ الأول الذي تقوم عليه

الأخلاق- ألا وهو الإخلاص ولهذا كانت أداة الحكم الأولى هي القدوة الصالحة ؛ ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون هو المثل الأعلى في السلوك الحسن ، حتى يحذو الناس حذوه ، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه وسأل كي كانج كنفوشيوس عن الحكومة قائلاً: ما قولك في قتل من لا مبدأ لهم ولا ضمير لخير أصحاب المبادئ والضمائر؟ ، فأجابه كنفوشيوس: وما حاجتك يا سيدي إلى القتل في قيامك بأعباء الحكم؟ لتكن نيتك الصريحة البينة فعل الخير ، فيكون الناس أخياراً إن العلاقة القائمة بين الأعلى والأدنى لشبيهة بالعلاقة بين الريح والكلأ ، فالكلأ يميل إذا هبت عليه الريح وما أشبه الذي ينهج في حكمه نهج الفضيلة بالنجم القطبي الذي لا يتحول عن مكانه والذي تطوف النجوم كلها حوله ، وسأل كي كانج كيف يُحمل الناس على أن يجلوا حاكمهم ، وأن يخلصوا له ، وأن يلتزموا جانب الفضيلة؟ فأجابه المعلم: فليرأسهم في وقار- يحترموه ، وليكن عطوفاً عليهم رحيماً بهم ، يخلصوا له وليقدم الصالحين ويعلّم العاجزين- يحرصوا على أن يكونوا فضلاء وإذا كانت القدوة الحسنة أولى وسائل الحكم ، فإن حسن الاختيار للمناصب وسيلته الثانية: استمل الصالحين المستقيمين ، وانبذ المعوجين ، وبهذه الطريقة يستقيم المعوج وتقول عقيدة الوسط: إن تصريف شئون الحكم إنما يقوم على استعمال من يصلح له من الناس وما من سبيل إلى الحصول على هؤلاء الناس إلا أن تكون أخلاق الحاكم نفسه صالحة وأي شيء لا تستطيع الوزارة المؤلفة من الرجال الأعلين أن تعمله في جيل واحد لتطهير الدولة والارتفاع بالشعب إلى مستوى عال من الحضارة؟ - إن أول ما يحرصون عليه ألا تكون لهم قدر المستطاع علاقات خارجية ، وأن يعملوا على أن يكتفوا بغلاتهم عن غلات غيرهم، حتى لا تشن أمتهم الحرب على غيرها من الأمم للحصول على هذه الغلات ، ثم يقللون من ترف بطانة الملوك ويعملون على توزيع الثروة في أوسع نطاق لأن تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب ، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته ، ثم يخففون العقاب وينشرون التعليم العام لأن التعليم إذا انتشر

انعدمت الفروق بين الطبقات ويشير كنفوشيوس بألا تدرس الموضوعات العليا لذوي المواهب الوسطى ، أما الموسيقى فيجب أن تعلم للناس أجمعين ومن أقواله في هذا: إذا أتقن الإنسان الموسيقى ، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها ، تطهر قلبه وصار قلباً طبيعياً ، سليماً ، رقيقاً، عامراً بالإخلاص والوفاء ، يغمره السرور والبهجة وخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات أن توجه العناية إلى الموسيقى التي تعزف في البلا والأخلاق الطيبة والموسيقى يجب ألاّ يهملهما الإنسان فالخير شديد الصلة بالموسيقى والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام وعلى الحكومة أن تُعنى أيضاً بغرس الأخلاق الطيبة ، ذلك أن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة معها وآداب اللياقة هي التي تكون على الأقل المظهر الخارجي لأخلاق الأمة وإن لم يدرك الناس هذا ، وهي تضفي على الحكيم لطف الرجل المهذب ؛ وما من شك في أن المرء ابن عادته أما من الوجهة السياسية فآداب اللياقة حواجز تقوم بين الناس وبين الانغماس في المفاسد ، ومن ظن أن الحواجز القديمة لا نفع فيها فهدّمها حلّت به الكوارث الناشئة من طغيان المياه الجارفة ويكاد الإنسان أن يسمع هذا القول الصارم الذي نطق به المعلم الغاضب يتردد هذه الأيام في جنبات بهو الآداب القديمة التي نقشت ألفاظها على حجارته ، والتي دنستها أوضار الثورة وحقرتها ومع هذا فقد كان لكنفوشيوس أيضا أحلامه ومثله العليا في الحكومات والدول فقد كان يعطف بعض الأحيان على الذين إذا اقتنعوا بأن الأسرة الحاكمة فقدت الأمر الأعلى أي أمر السماء ، قوضوا أركان نظام من نظم الحكم لكي يقيموا على أنقاضه نظاماً خيراً منه وقد اعتنق في آخر الأمر المبادئ الاشتراكية وأطلق فيها لخياله العنان! إذا ساد المبدأ الأعظم مبدأ التماثل الأعظم أصبح العالم كله جمهورية واحدة ؛ واختار الناس لحكمهم ذوي المواهب والفضائل والكفايات ؛ وأخذوا يتحدثون عن الحكومة المخلصة ، ويعملون على نشر لواء السلم الشامل وحينئذ لا يرى الناس أن آباءهم هم من ولدوهم دون غيرهم ، أو أن أبناءهم هم من ولدوا لهم ، بل تراهم يهيئون سبل العيش للمسنين

حتى يستوفوا آجالهم ، ويهيئون العمل للكهول ، ووسائل النماء للصغار ، ويكفلون الحياة للأرامل من الرجال والنساء واليتامى وعديمي الأبناء ، ومن أقعدهم المرض عن العمل هنالك يكون لكل إنسان حقه ، وهنالك تصان شخصية المرأة فلا يتعدى عليها وينتج الناس الثروة ، لأنهم يكرهون أن تبدد وتضيع في الأرض ، ولكنهم يكرهون أن يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس ، وهم يعملون لأنهم يكرهون البطالة ، ولكنهم لا يهدفون في عملهم إلى منفعتهم الشخصية وبهذه الطريقة يقضى على الأنانية والمآرب الذاتية ، فلا تجد سبيلاً إلى الظهور ، ولا يرى أثر للصوص والنشالين والخونة المارقين ، فتبقى الأبواب الخارجية مفتحة غير مغلقة هذا هو الوضع الذي أسميه التماثل الأعظم

فلسفة كونفشيوس في التربية المثالية والمعلم المثالي:

أولى كونفوشيوس اهتمامه، شطر تثقيف الشباب، وتربيتهم التربية المثالية السليمة التي تؤهلهم للاضطلاع بمستقبلهم كرجال دولة وكانت آراؤه عديدة وجريئة خاصة ما يتعلق منها بإصلاح العالم فاجتذبت بسحرها، إلى حلقته الدراسية عددا من الأشخاص أصبحوا تلاميذه وكان بعضهم يصغرونه، ببضع سنوات، ومنه ومن هذه المجموعة من تلاميذه ومريديه تشكلت للدراسات العليا، أول مدرسة حرة خاصة في تاريخ الصين كانت المدارس وقتذاك ملحقة بقصور الحكام والأرستقراطيين النبلاء ويتعلم فيها أبناؤهم لتدريبهم على فنون الحكم وشغل الوظائف العامة في الدولة وإذا كانت عملية التثقيف في مدرسة كونفوشيوس تتفق مع مدارس الأرستقراطية من ناحية تهيئة الدارس ليكون موظَّفا حكوميا، إلا أن الغاية من التدريس انصبت في الحالة الأولى على تنشئة الدارس تنشئة أخلاقية وتنمية مداركه العقلية ليلعب دو را حيويا مؤثرا في الحكمة التي قد يشترك فيها، بإخضاعه لخدمة احتياجات الشعب، في حين اتجهت غاية التثقيف في المدارس الأرستقراطية إلى تمكين موظف الدولة من مباشرة أعمال تقليدية معينة تخدم أهداف الحاكم، وبذلك يتحول الموظف في هذه الحالة إلى مجرد أداة طيعة في يدي

صاحب السلطان ولما كان قد أخذ على عاتقه تحويل رجال من أصول فقيرة متواضعة إلى سادة أماجد نبلاء قادرين على التصرف في المحافل ودواوين الحكومة تصرف النبلاء ذوي الأصول العريقة، حرص على تعليمهم قواعد اللياقة والمجاملة وآدابها، وأساليب الرسميات؛ لأنها تعتمد على الشرف، والاعتزاز بالكرامة والحياء والتثقيف الذاتي وتقديس تقاليد الأجداد النبيلة كان كونفوشيوس يزدري دائ ما الفصاحة وزخرف القول، وليست هناك أية مصادر صينية تثبت أنه ألقى محاضرة عامة ولكن على الرغم من ذلك فقد كان يتمتع بقوة إقناع خارقة إذا ما تحدث إلى فرد واحد أو إلى مجموعة صغيرة ونستطيع أن نشعر بجاذبية شخصيته من خلال أقواله وآرائه الجريئة في إصلاح العالم، التي كان يوجهها إلى أولئك الذين كان يتصل بهم وقد اجتذب نحوه تدريجيا الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى عدد من الناس أصبحوا أتباعه ومريديه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ونشأت بينه وبينهم صلات ود وثيقة وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهيا لا يلجأ فيه إلى الكتابة، وكانت الحوادث التي تصادفه هو وتلاميذه أثناء لتنقل من إقليم إلى إقليم هي التي توحي بموضوع الحديث وكان كونفوشيوس يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم في رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة والانتباه ومن أقواله في هذا المعنى :إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول :ماذا أرى في هذا؟ فأني لا أستطيع أن أفعل له شيئًا وكان كونفوشيوس معلما من الطراز الأول، يعتقد أن التنائي عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم وكان شديد المراعاة للمراسم وكانت قواعد الآداب المجاملة طعامه وشرابه وكان يبذل ما في وسعه للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة وقال مرة :قد أكون في الأدب مساويا لغيري من الناس، ولكن خلق الرجل الأسمى أو الماجد، الذي لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد ويقول عنه تلاميذه :كان المعلم مبرأً من أربعة عيوب :كان لا يجادل وفي عقله رأي سابق، ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائدهم، ولم يكن عنيدا، ولا أنانيا وقد وصف نفسه بأنه مجرد

ناقل وليس مبدعا، وأراد أن يقدم للناس خلاصة سهلة مفهومة لكل ما تعلمه من قدماء المفكرين، وكان يؤثر القراءة والاطلاع على الطعام والراحة والنوم وقد آل على نفسه القضاء على شرور أربعة :عقلية مغرضة، أحكام جائرة، العناد، الأنانية إننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن كونفشيوس كان متواض عا في عظمته وكبريائه

والمعرفة، عند كونفوشيوس، اكتسابية وليست إلهامية وقد أكدَ ذلك في عدة مناسبات، فقد كان يقول إنه ليس شخصا ، كونفوشيوس :ولد عارًفا للحقيقة ، وإنما مصدر معرفته هو القراءة والدراسة الكثيفة والملاحظة لقد كان دائم الملاحظة لرفاق دربه، فيأخذ ما هو صالح عند أحدهم، ويمعن فيما هو سيء عند آخر ليصون نفسه عن إتيانه إن الإنسان يولد والمعرفة ممتنعة عليه فيما يرى ذلك كونفوشيوس، فهو يولد جاهلا أية معلومات أو حقائق علمية؛ لأن عقله في هذه الحالة أشبه ما يكون بالصفحة البيضاء، وعليه بعد ذلك أن يجتهد في معرفة هذه الحقائق عن طريق الدراسة والبحث والتحصيل ولكن كونفوشيوس، يشير من ناحية أخرى في كتاب المنتخبات إلى وجود نوعين من الحكماء :أولئك الذين ولدوا وهم ذوو معرفة ألهمتهم بها السماء، دون مجهود شخصي من جانبهم، وبغير أن يكونوا على وعي بمعرفتهم، وهؤلاء الحكماء الموحى إليهم هم الأفضل أما النوع الثاني من الحكماء، فهم أولئك الذين يتعلمون ويعملون على كسب الحكمة بدارساتهم المتواصلة الاجتهادية،وهؤلاء، في نظره، هم أبناء الأرض، الموكل إليهم عن طريق مجهوداتهم الخاصة، حماية أنفسهم من الهوى والشر فإذا نجحوا في هذا

اقتربوا من درجة الحكماء الملهمين أبناء السماء، المشتملين على الأسرار الإلهية العظيمة ويرى أن حكمة وجود الحكماء الموحى إليهم هي إبلاغ قانون السماء، وهداية البشر، وإنقاذهم من الخروج عن الصراط السوي ومن أقواله :أولئك الذين يولدون حكماء أسمى أنواع الناس، ويتلوهم من ينالون الحكمة بالدراسة

والاطلاع، ويتبعهم من يتغلبون على بلادتهم بالاطلاع أما من يظلون على بلادتهم فأوطأ الناس وعلى الرغم من هذا فقد حرص كونفوشيوس على أن يكون مصدر معرفته هو الدراسة والبحث، وليس التأمل النظري أو الإلهام؛ لأن محب العلم يتعلم كل يوم ما ينقصه، ولأن طريق العلم طريق شاق، لا يغني فيه التفكير عن التعلم، كما أن التعلم لا يجدي بدون تفكير فكلاهما لا يفترقان وبتعبير آخر :إن التفكير دون تعلم خطر وملل كما أن التعلم دون تفكير عدم ومن أقواله في هذا : كنت لا آكل طول النهار، ولا أنام طول الليل لأعمل فكري، وما وجدت لذلك فائدة، بل :الأفضل هو التعلم اطلب العلم بالتوسع ولتكن همتك صادقة، واستفسر عما يعينك وفكر فيما يقربك فإن في ذلك إذا كان كونفوشيوس قد آمن بمبدأ المساواة في التعليم، لتساوي الناس في الطبائع والغرائز، كما آمن أيضا، بقدرتهم على التحصيل والتفكير، دون نظر إلى أجناسهم أو ألوانهم أو أوضاعهم الاجتماعية إلا أنه قد أقر بالتفاوت بينهم في العقل والمعرفة والموهبة والتجربة والدليل على هذا أن مدرسته كانت تضم تلاميذ من مختلف الطبقات الاجتماعية، من النبلاء ومن الفقراء معا دون تفرقة طبقية بينهم، وكان يقو+ل وهو يستقبلهم : إنني لم أرفض قط أن أعلم أي شخص حتى لو جاءني مشيا على الأقدام، دون أن يقدم شيئًا نظير تعليمه، أكثر من اللحم الجاف وإذا كان كونفوشيوس قد اشتهر عنه الحياد، في هذا الأمر، إلا أنه لو كانت عنده مفاضلة بين طلابه، لكان من المحتمل أن تكون لمن هو أقل غنى لقد امتدح أحد طلابه لأنه استطاع برغم ارتدائه الرداء المهلهل أن يقف جنبا إلى جنب مع أولئك الذين كانوا يرتدون الفراء الثمين، دون أن يتملكه أدنى ارتباك وقد أصبح هذا الطالب، الذي يرتدي هنا رداء مهلهلا، فيما بعد موظَّفا كبيرا جدا يشغل منصبا ها ما من أخطر مناصب البلاد، يمكن أن يتقلده شخص لم يتقلد منصبه عن وراثة ومعنى هذا أن التربية والتعليم، عنده لم تكن من أجل التربية والتعليم فحسب، بل كانت من أجل تحقيق غايات عملية تتمثل في تقلد الوظائف العامة، وحل جميع المشكلات السياسية وتحقيق

المجتمع الكامل لقد كان كونفوشيوس يعد طلابه لينطلقوا إلى العالم ويكافحوا من أجل مبادئه التي تهدف إلى إقامة المجتمع الكامل

الربط بين السياسة والأخلاق:

حرص كونفوشيوس في نظامه السياسي الاجتماعي على الربط بين السياسة والأخلاق، واتخاذ الأخلاق أسا سا لهذا النظام؛ إذ إن الفكرة السياسية عنده لا يمكن عزلها عن المعنى الحقيقي للأخلاق ولذلك نلاحظ تغلغل بعض العناصر الأخلاقية حتى في داخل النظريات السياسية لأولئك الذين توهموا أنهم عزلوا الأخلاق عن السياسة فالأخلاق هي أساس أي نظام سليم، ولا يتحقق هذا النظام فيما يرى ذلك كونفوشيوس، إلا إذا عمل الحاكم على إكمال أخلاق الأفراد أنفسهم عن طريق التربية السليمة

إن للأخلاق سمات وصفات أساسية، أولها أنها تخلع الانسجام والتآلف والاطمئنان والوحدة فيما تحل به سواء كان فردا أم دولة فالانسجام الداخلي والاتساق والكمال النفسي للفرد، تؤدي كلها إلى انسجام الدولة ووحدتها واتساقها وكمالها في النهاية، وذلك باعتبار أن الفرد هو صورة مصغرة للدولة، كما أن الدولة تتمثل فيها الأخلاق بصورة مكبرة ومن هنا نجح كونفوشيوس في القضاء على تجزئة السياسة عن الأخلاق عند قدماء الصينيين وقد امتاز كونفوشيوس، في اعتباره الأخلاق أساس إصلاح المجتمع، وإقامة الحكم الصالح، عن جماعة التشريعيين القانونيين الذين ذهبوا إلى القول بأن القانون، لا الأخلاق، هو أساس الحكم الصالح، وأن القوة أو سلطة النظام الحاكم هي الأساس الأول لإصلاح المجتمع أو الدولة عن طريق إلزام الدولة الأفراد باتباع الأخلاق القويمة كما امتاز عن مذهب لاو – تسو أو المذهب التاوي الذي يشجع على اعتزال الأفراد المجتمع وانسحابهم منه، دون أدنى تفكير في الأفراد الآخرين الذين يشاركونهم في الحياة الجمعية، إذ ينصح بألا نتدخل في أي أمر من أمورهم كما يطالب الدولة بألا تتدخل في أمر من أمور المجتمع أضف إلى ذلك أن لاو – تسو يختلف أيضا مع معظم الفلاسفة في

دعوته إلى عدم تمجيد المعرفة، والتغاضي عن كافة الشروط السوية لإقامة المجتمع العادل، وباختصار فإنه لا يرى شيئًا سوى الشر في فكرة الحكومات أ ما كونفوشيوس فقد اهتم بالطبيعة الإنسانية ووصفها بالطبيعة الخيرة، كما اهتم بالمجتمع وآمن بأن أفراده كائنات اجتماعية هامة، لا جود لها ما لم تكن مندمجة فيه تمام الاندماج،وباذلة جهدها لكفالة السعادة للمجتمع بأسره، مما يؤكد في النهاية إنسانية المذهب الكونفوشيوسي وسوف تتردد هذه المعاني، من بعد ذلك، عند الفيلسوف اليوناني أفلاطون الذي اعتبر علم السياسة علما أخلاقيا غايته تحقيق العدالة في دولة المدينة، وأن الفضيلة هي تحقيق العدالة في النفس ثم إن العدالة إذا تحققت داخل الأفراد، عن طريق سيطرة العقل على الجسم ونوازعه ورغباته، انعكست، بالتالي، على المجتمع ولم كانت السعادة ترتبط، عنده، بالعدالة، أصبحت السعادة هي الخير الأقصى ومن جهة أخرى، عارض السوفسطائيون، الذين ظهروا في بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، بين الطبيعة البشرية والأخلاق، وأصبحت هذه الطبيعة في نظرهم حشد من النزوات والميول والرغبات، واعتبروا الفضائل رذائل مقنعة، وأن السعادة تقتضي إشباع الرغبات والميول بشجاعة دون نظر إلى دين أو قوانين أو أعراف والحق عندهم، هو حق القوي، والحرية هي حريته وحده، ومن هنا ذهبوا إلى القول بأن القوة والعنف والسيطرة هي أساس نشأة الحكومة والدولة وفي القرن السادس عشر الميلادي ظهر في إيطاليا المفكر والفيلسوف نقولاماكيافللي ليحذو حذو السوفسطائية في فلسفتهم الأخلاقية والسياسية، ويردد نفس أقوالهم، إذ فصل ، مثلهم بين السياسة والأخلاق، واعتبر علم السياسة عل ما قائ ما بذاته وقد دعا ماكيافللي إلى القسوة والإرهاب والخداع والغدر والكذب وإهدار الإخلاص والصداقة والأمانة، وأن هذا كله من شأنه، المحافظة على سلامة الدولة، وتحقيق الرفاهية ويرسم ميكيافللي مصورا للفضائل التي ينبغي أن يتصف بها الأمير، ويقيس بمقياسه غاية في الضبط ما هو السخاء والتبذير والقسوة والرحمة، وحسن النية والمكر، ويقر

الكذب بلا أدنى تردد، والغدر والسم والاغتيال كلما كانت هذه الوسائل العنيفة نافعة، والغرض الوحيد هو البقاء في السلطان بأي ثمن كان، وإن النجاح ليبرر كل انتهاك للحرمات ويبدو أن ماكيافللي في فصله السياسة عن الأخلاق، قد فقد كل تمييز بين الخير والشر، وأصبحت فلسفته ضربا من الخزي عند رجال الدولة حتى أفسدهم سلوكا ولم يكن الأخلاقيون وحدهم هم الذين يزرون عليها بل الملوك الذين يُدعَى أنها قد ألفت لهم، نبذوها نبَّذا وإنها لتستحق هذا المقت الإجماعي ومن المحال على المرء أن يقرها متى تفطن في كتاب الأميروإذا كان كونفوشيوس قد أنكر، منذ آلاف الأعوام، الفصل بين السياسة والأخلاق، فإن هيجل في العصر الحديث، يذكر هو الآخر مثل هذا الفصل، إذ إن الدولة عنده، كما ورد في فلسفة القانون هي الفكرة الأخلاقية الملموسة ويؤكد الدرس الذي يلقيه سقراط على تلميذه السيبياد صحة ما قرره كونفوشيوس منذ قرون، من حيث ضرورة أرسطو طاليس :السياسة، اتخاذ النظام السياسي الأخلاق أسا سا له، ووجوب أن يتحلى الأفراد في المجتمع بالأخلاق القويمة حيث يقول: بل إن الدرس الذي كان يلقيه سقراط على تملذه السيبياد ما زال أولى بالسياسة أن يتلقوه وأن ينتفعوا به: يجب قبل كل شيء يا صديقي أن تفكر في اكتساب الفضيلة أنت وكل رجل يريد ألا يعني بنفسه وبماله من الأشياء فحسب، بل أيضا بالدولة وبالشئون التي هي للدولة الحكومة الصالحة: ولما كانت السعادة والخير هي غاية أفراد المجتمع وأملهم المرتجى، فإن الحكومة الصالحة، في نظر كونفوشيوس، هي التي تعمل جاهدة على تحقيق هذه الغاية، وتكفل في النهاية السعادة لجميع الأفراد ولكن لما كانت الأنانية التي فطِر عليها معظم الأفراد تحول بينهم وبين تحقيق هذه الغاية، إذ كثيرا ما يؤثر الفرد لذة عاجلة أقل على أخرى آجلة أعظم، ويفضل سعادته الفردية على سعادة المجموع ولتصحيح هذه النزعات والاتجاهات، اصر كونفوشيوس على ضرورة تربية الأفراد تربية عامة شاملة، واعتبر الفرد المستنير ركن الدولة

الركين، كما رأى أن تحقيق سعادة المجتمع بأسره تقتضي العمل بمبدأ تبادل الأخذ ويعرفه بأنه :امتناع والعطاء الفرد عن إتيان فعل يكره توجيه الغير إياه إلى ذاته أو بتعبير آخر لا تعامل الناس بما لا ترضى أن تعامَل به كما يعرفه أيضا بصورة أكثر إيجابية فيما يلي: الرجل الفاضل حَقا هو من يرغب في تثبيت أقدام الناس، كما يرغب في تثبيت قدميه، يريد لنفسه النجاح ويكافح ليساعد الآخرين لينجحوا، ويجد في أمنيات قلبه المبدأ لسلوكه تجاه الغير في منهج من الفضيلة الحقة إن التربية الشاملة والاستنارة الخلقية، تلعبان دو را كبيرا في إقناع كل فرد بأن يربط سعادته الفردية بسعادة المجموع برباط وثيق ينفصم ثم إن الشعور بتساوي الأفراد، يؤلف بينهم في العمل بهذا المبدأ المشار إليه، ويقنع كل فرد أن يتبع هذا المبدأ في توجيه حياته كلها الأخلاق، إذن شرط لازم وضروري لحكم الشعب، كما أنها تشير، في نفس الوقت، إلى عظم الدور الذي يجب أن تنهض به الحكومة الصالحة من حيث غرس الأخلاق الطيبة، ذلك أن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة كلها، وهذا ناتج من تشبيهه الأخلاق بالحواجز التي تحول بين الناس وبين الانغماس في الشهوات والمفاسد، وإلى مثل هذا يشير كونفوشيوس في كتاب الطقوس حيث يقول إن ثمة شروط رئيسية لازمة لحكم العالم :الأخلاق، ووجود السلطة، وحب التاريخ، وفي حالة عدم توافر شرط من هذه الشروط، فإن هذا من شأنه أن يؤدي إلى فشل الحكومة، مهما كان الحاكم ممتا زا ومعنى هذا أن وجود الحكومة شرط هام وضروري لكفالة السعادة وتحقيق النظام، واستقرار الأمور في المجتمع ويقول في ذلك :إن ذات الأمير كالهواء، وذات الجمهور كالعشب وعندما يمس الهواء العشب، ينحني العشب، ولا يتحقق النظام إلا بالسلطة كما يشبه الحكومة الصالحة التي تنهج في حكمها نهج الفضيلة بالنجم القطبي الذي لا يتحول عن مكانه، والذي تطوف النجوم كلها حوله والحكم، عنده، هو تفويض أو توكيل من السماء للحاكم، وأن السماء أو الإله، هي التي قلدت الملك منصبه واختارته على أنه ابنها؛ مما يعطيه سلطة سياسية على رعاياه، الذين يكلفون بدورهم

بالمناصب عن طريقه وكما أن الملك يحكم بفضل تفويض السماء له، فكذلك يفعل أمراء الإقطاع في مملكته، إذ تكون لهم سيادة محلية تحت إشراف الملك وأمراء الإقطاع، بدورهم، وهم يفوضون الإقطاعيين التابعين لهم بالقيام بواجبات معينة وهكذا نجد هرم الحكم كله يقوم من القمة إلى القاع على إرادة السماء فالحاكم بهذا، وكما ورد عن كونفوشيوس وفي الكتب الصينية القديمة، هو قبة العالم، وحلقه الاتصال أو الانفصال بين السماء والأرض، وأن سلوكه إ ما أن يكون منظ ما أو مخلا للطبيعة جفري بارندر :المعتقدات الدينية لدى الشعوب وسلطان الملوك الإلهي، عند كونفوشيوس، ليس سلطاًنا مطلًقا أو أبديا، إذ إنه مشروط وموقوت بالتزام الحاكم بواجباته وتمسكه بالأخلاق القويمة، فإذا حاد الحاكم عن الطريق السوي أو أهمل واجباته، سحبت السماء منه تفويض الحكم، لحرصها منذ البداية على اختيار ذوي الأخلاق الفاضلة الممثلين لها على الأرض ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى :إن توكيل السماء للحاكم ليس أبديا، وهذا يعني أن الحاكم يظل متمتعا بالتوكيل الإلهي طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير، كما يفقد هذا التوكيل عندما ينتهج سياسة الظلم وقال أيضا :إن بقاء الأمير أو الحاكم متوقف على رغبة الله أو إرادته وإرادة الله هي إرادة الشعب فإذا نال عطف الشعب وحبه فإن الله العلي السامي ينظر إليه بعين الرضا، ويوطد عرشه أما إذا فقد حب الشعب وعطفه فإن العلي السامي يصب غضبه عليه؛ ومن ثم يفقد دولته لقد كانت رؤية كونفوشيوس، وكل مفكري الصين القدامى، للحكم أنه اختيار سماوي وتفويض منها للحاكم، يستخدمه في إسعاد شعبه، وجعل العالم منسجما متناسًقا، وتدريب هذا الشعب على المهمة التي يفرضها عليهم الانسجام الاجتماعي والكوني عن طريق التربية الأخلاقية السليمة، والطقوس والشعائر أما إذا أساء الحاكم استخدام هذا التوكيل، فيجب على الرعية، كما أشرنا، تنحيته عن الحكم، وعدم الالتزام بطاعته أو الخضوع لإرادته وإذا كان المفكرون الصينيون القدامى يتفقون مع مفكري الشرق القديم خاصة في مصر والهند في القول بأن الحكم

تفويض إلهي، وأن الحاكم ابن السماء ومن نسل الآلهة، إلا أنهم يختلفون عنهم من حيث القول بأن هذا التفويض ليس مطلَقا أو دائ ما أبديا، بل هو مشروط باستخدام الحاكم له لمصلحة الشعب لا لمصلحته الشخصية فمصلحة الشعب وخيره وسعادته هي أساس الحكم عند كونفوشيوس، وذلك بالنظر إلى الصلة الوثيقة بين السماء والشعب، وبالنظر أيضا إلى أن صوت الشعب هو خير معبر عن صوت السماء أو الإله وفي ذلك يخاطب أحد الأمراء قائلا: إذا نلت حب الشعب، فإنك تنال بذلك حكم الإمبراطورية، وإذا فقدت حب الشعب فقدت الإمبراطورية ومما يوضح هذا المعنى، أيضا، ما تضمنه كتاب التاريخ حيث يقول: إن ما تراه السماء أو الله وتسمعه ليس شيئًا آخرغير ما يراه الشعب ويسمعه وما يعتبره الشعب جديرا بالثواب أو العقاب هو ما تعتبره السماء جديرا بأن يثاب صاحبه أو يعاقب، فهناك اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب وعلى من يقومون بشئون الحكم في الشعوب المختلفة إذن أن يراعوا كل ذلك ويتدبروه فصوت الشعب، إذن، من صوت الله، وهو نفس المعنى الذي سوف يتردد صداه من بعد ذلك بقرون عند مفكري العالم الغربي في العصر الحديث ومعنى هذا أن المصدر الحقيقي للسلطة السياسية، عند كونفوشيوس، هو كتاب الطقوس الشعب، وأن أي حكومة لا تحتفظ باحترام الشعب وثقته يكون مصيرها السقوط لا محالة إن عاجلا أو آجلا ويرجع الشرور والمصائب التي امتلأ بها عصره إلى وجود مثل هذه الحكومة الفاسدة إن فساد الحكم،عنده يرجع إلى تفشي الأنانية والجهل أو إلى قصور الإمكانيات والمؤهلات عند القائمين على الحكم الناشئ عن تولي الحكام مناصبهم عن طريق الوارثة ولا يتحقق علاج هذا الفساد إلا إذا تقلد مقاليد الحكم أكفأ عناصر الأمة عل ما وخلًقا ولا تتعلق هذه الأهلية والكفاية بأي نسب أو ثروة أو مركز اجتماعي، بل يتعلقان، كما أشرنا بالخلق القويم والمعرفة المستنيرة، ثمرة التربية الصحيحة؛ ومن ثم يجب الاهتمام بنشر التربية، وتعميم التعليم الرشيد وإشاعتهما في جميع أرجاء البلاد حتى يمكن إعداد الموهوبين لتولي مهام الحكم، والإشراف على

وظائف الدولة، بغض النظر عن أصلهم ومنبتهم إن المعرفة التي تؤثر في الواقع، عنده هي ينبوع الخلاص الإنساني ومعنى هذا أن شرط الحكم الصالح وبقاءه وازدهاره، فيما يرى ذلك كونفوشيوس في كتابه مذهب الوسط هو توافر الرجال الصالحين :فإذا افتقر المجتمع إليهم، تداعى الحكم وانهار وعلى الناس أن يبذلوا اهتما ما فائقًا بشئون الحكم، مثلما تعنى الأرض بإنماء الأشياء وهنا يصبح الحكم كالشجرة الضخمة أصلها ثابت وتطاول فروعها السماء فإدارة الحكومة تستند في المكان الأول على الرجال الصالحين وفي مكنة الحكام أن يظفر بالرجال الصالحين بفضل قوة شخصيته، ويتأتى تقوية الشخصية باتباع السبيل الحسن ويدركه المرء بوساطة ممارسة القيم الإنسانية، وفي طليعتها محبة أفراد العائلة ولاسيما الوالدين وقد حرص في هذا الصدد على تعليم تلاميذه وجوب الالتزام بالمبدأ الأخلاقي، وتدريبهم على التفكير السليم، والتصرف الحكيم في مختلف المواقف التي قد يجد الموظف المسئول نفسه فيها، كما علمهم الكثير عن مبادئ الحكم، وبرهن الكثير منهم،في المران الفعلي،عندما أسندت إليهم الوظائف الفعلية، على كفاءتهم وقدراتهم الفائقة في أن يصبحوا مسئولين ناجحين ولما كان توريث الحكم هو التقليد السائد في الصين، ولما كان كونفوشيوس يخشى أن تصد تعاليمه الحكام الوراثيين بضرورة أن يتخلوا عن عروشهم الوراثية أو أن يتعرض لبطشهم أو إخمادهم لتعاليمه؛ فمن ثم حاول إقناع هؤلاء الحكام بأن يملكوا ولا يحكموا، وأن يدعوا تصريف أمور الدولة إلى الوزراء الذين يختارون طبقًا لمؤهلاتهم وكفاياتهم ويعتبر الوزير أعلى درجة من درجات المسئولية الأخلاقية الأدبية، ويشترط فيه الإخلاص لحاكمه، والنصح، وأن يكون صريحا معه، متجنبا الانغماس في الشهوات حتى لا يصرفه ذلك عن جليل الأعمال، معتدلا في كل شيء، وأن يكون عادا وعندما سأله أحد مريديه عن موقف الوزير تجاه حاكمه، أجاب كونفوشيوس :على الوزير ألا يخادع الحاكم، وله أن يعارضه، إذا لزم الأمر، وأن يكون صريحا معه وقد ذكر ذات مرة لحاكم ولاية لو : إنه إذا كانت

سياسات الحاكم خاطئة، ولم يحاول المحيطون به معارضته وتقديم النصح له، فهذا كفيل بالقضاء على الدولة وتدميرها وعلى الحاكم أن يحسن معاملة وزرائه، بأن يتجنب العنف معهم أو الإساءة إليهم أو التشكيك في وفائهم، فيتذمروا منه، وأن لا يلتمس من رجل واحد منهم المقدرة على جميع الشئون أخلاق الحاكم وواجباته: اشترط كونفوشيوس أن يدير دفة الحكم أكفأ عناصر الأمة علما وخلًقا، فلكي ينجح الحاكم في مهمته يشترط فيه أن يكون متحليا بالعلم والحكمة والعدالة والصدق والكرم والوقار والكرامة والهمة، وأن يكون مخل صافي حديثه، حازما في سلوكه، رحي ما بشعبه، بشوشا لجميع الناس، مؤثرا لمصالح شعبه على مصالحه الشخصية، وأن يكون متعمًقا في فهم قوانين السماء أي القواعد التي يسير بمقتضاها المجتمع الإنساني، وتخضع لها الظواهر الطبيعية ولما كانت العائلة هي وحدة المجتمع الإنساني وقاعدته، فيجب على الحاكم أن يتمرن فيها على حسن معاملة الناس وقيادتهم وفق مبادئ العدالة والمحبة، وأن يحرص على تعليم عائلته نفسها هذه المبادئ، فإن سادتها النزعة الإنسانية، ازدهرت هذه النزعة الإنسانية في المجتمع بأكمله، وانتظمت أموره، وغمر العدل أرجاءه ثم إن الحاكم بتوفيقه في تعليم عائلته وتهذيبها، يوفق في تعليم رعاياه وتهذيبهم؛لأن الفرد إذا فسد فسدت العائلة، وبالتالي يفسد المجتمع، وتضطرب أموره، أما إذا ساد النظام العائلة، فإنه يسود المجتمع ويكون حكمه صالحا ومما قاله كونفوشيوس في هذا الصدد: إن فن القيام بحكم سليم يقتضي أن يكون الحاكم قادرا أولا على إقامة نظام سليم في أسرته، ومن الضروري إذن بالنسبة للشخص الذي ينتمي للطبقة الحاكمة أن ينظم سلوكه الشخصي، وتنظيم سلوكه الشخصي يقتضي أن يقوم بواجباته إزاء أقاربه والمتصلين به، ومن ثم إزاء الأفراد الذين ولي أمرهم ولكي يستطيع أن يقوم بهذه الالتزامات عليه أن يفهم طبيعة المجتمع الإنساني، وأسس التنظيم الاجتماعي إنما يدرس القواعد الإلهية والقوانين الربانية التي تسود المجتمع الإنساني لقد ألزم كونفوشيوس الحاكم، لكي يقوم بأعباء الحكم بشكل سليم، بالتزامات عديدة

وواجبات هامة، يأتي في مقدمتها: أن يتحلى بالفضائل الإنسانية الشخصية مثل العدل، وصدق العزيمة، وخلوص النية، والتدقيق في استخدام الكلمات استخدا ما صحي حا، ومراعاة آداب اللياقة والذوق السليم وجمال المظهر، وتجنب مجالس النساء؛ لأنهن في نظره أس البلاء ومصدر شقاء الإنسان ومن هنا كانت كراهية كونفوشيوس وبغضه الشديد لهن وأن يحرص على إنسانية علاقاته الاجتماعية، أن يعامل الناس معاملة اعتبار واحترام، دونما حاجة إلى القوة، وأن يعمل على تطهير صحبته من الطالحين والمتزمين ضيقي الأفق، فلا يصادق إلا من يشبهه، وأن يحتقر الماديات، و يعلي من شأن القيم الروحية والأخلاقية١ كتاب الطقوس، فصل الانسجام المركزي : يقول كونفوشيوس في كتاب الحوار من حكم مملكة وجب عليه العناية بشئونها والصدق في الوعد والوعيد لأهلها والاقتصاد في نفقاتها والمحبة لرعايتها أ ما بالنسبة لأهله، فمن أوجب الواجبات عليه التودد إليهم والمحافظة عليهم ووضعهم في المكان اللائق بهم، فالحاكم الصالح لا يهمل أهله وعندما سأله أحد أتباعه عن كيفية حمل الحاكم الناس على إجلاله والإخلاص له والالتزام بجانب الفضيلة؟ أجاب :فليرأسهم في وقار – يحترموه وليكن عطوًفا عليهم رحيما بهم، يخلصوا له وليقدم الصالحين ويعلم العاجزين، يحرصوا على أن يكونوا فضلاء إن حفظ زمام الشعب في أيدي الحكام، يتطلب، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، أن يحرص الحكام على الأخلاق الطيبة وإذا كانت القدوة الحسنة من أوجب واجبات الحاكم، فإن حسن اختيار الموظفين الملائمين للمناصب يعد من أهم واجباته :لتكن غايتك الأولى بأن يكون موظفوك أكفاء،وعليك أن تغض الطرف عن هفواتهم الصغيرة وقد قال كونفوشيوس، أيضا، في كتابه عقيدة أو مذهب الوسط: إن تصريف شئون الحكم إنما يقوم على استعمال من يصلح له من الناس وما من سبيل إلى الحصول على هؤلاء الناس إلا أن تكون أخلاق الحاكم نفسه صالحة فعلى الحاكم الذي يعرف الخير ويريده لشعبه أن يعنى باختيار موظفي دولته، وأن يضع الإنسان الكفء في موضعه المناسب، وأن يبتعد عن

التعاون مع الخبثاء والمنافقين والانتهازيين الذين ليس لهم من شهوة إلا شهوة الوصول إلى الحكم وعلى الحاكم أن يحسن معاملة هؤلاء الموظفين والمسئولين، وأن يراعي قدراتهم ويطلق أيديهم في شئون وزاراتهم، متحاشيا بذلك تركيز السلطة في يديه ومن واجب الحاكم تشجيع التعليم ورعاية الفنون النافعة، والنهوض بها و شرها في جميع أرجاء البلاد، لتيسير إعداد الموهوبين لتولي وظائف الدولة ثم إن الارتقاء بمستوى الشعب يتطلب من الحاكم ووزارته المؤلفة من الرجال الموهوبين تقليص حجم علاقاتهم الخارجية مع الدول الأخرى، وأن يكتفوا بغلاتهم التي تنتجها أرضهم الزراعية بديلا عن غلات هذه الدول،حتى لا يكون هذا سببا لشن الحرب عليها ومن الواجب عليهم، أيضا، محاربة الإسراف والتبذير في الدولة خاصة في بطانة الملك كما يحتم الواجب على الحاكم أن يحسن استقبال الأجانب، والإفادة من عملهم وثقافتهم إذا كانوا علماء مثقفين وأن يهتم بأمراء الولايات الأخرى ورفاهيتهم ويبادلهم احترا ما باحترام، وهو بهذا ينشر روح الاحترام والإجلال لشخصه :ذلك أنه لو تعلم قواعد الأخلاق فإنه لا شك يعرف الوصول إلى الطريق السليم، ولو احترم الأفراد الجديرين بالاحترام فلن يغتر بالأفراد المخادعين وبتوددة إلى ذوي قرباه يجعل الوئام سائدا بين أفراد أسرته وباحترامه للوزراء سيجنب نفسه الخطأ وإذا استطاع أن يوحد بين مصلحته والصالح العام فإن الإخلاص وروح التضحية سيسودان أفراد دولته وبإظهاره روح الأبوة بالنسبة لشعبه يجد الأفراد وقد وهبوا حياتهم لفعل الخير وعندما يشجع الحاكم الفنون النافعة تزيد الثروة والدخل القوميين ويعم الرخاء إذا عطف على الأجانب، فإن الأفراد من جميع دول العالم سيأتون زمرا وجماعات وباحترام الحكام للأمراء من كل ولاية، نما ينشر روح الاحترام والإجلال لشخصه وتهدف الحكومة الصالحة إلى تحقيق ثلاثة أمور: الكفاية من الطعام التموين الجيد ، والكفاية من العتاد الحربي الجيش الجيد ، وثقة المحكومين بحكامهم ثقة الشعب وإذا كان من الممكن الاستغناء عن الجيش أولا، ثم عن الطعام ثانيا، إلا أنه من

المتعذر تما ما التضحية بالثقة :لأنه إذا لم يكن للناس ثقة بحكامهم، فلا بقاء للدولة أو بتعبير آخر اذا فقد الشعب ثقته كانت أية حكومة محالا وفي ذلك يقول كونفوشيوس :من ضروريات السياسة الأقوات الوافية، وذخائر الحرب الكافية، وثقة الرعية وإذا اضطررنا إلى حذف شيء من هذه الأشياء الثلاثة، فلنبتدئ بحذف ذخائر الحرب ثم حذف الأقوات؛ لأن الموت كان حظ الإنسان منذ سالف الزمان ولكن ثقة الرعية لا يمكن حذفها؛ إذ لا تقوم السياسة إلا بها كتاب الطقوس، الانسجام المركزي وإذا كانت القوانين هي إحدى وسائل الحكومة، إلاأن كونفوشيوس يؤكد أن القدوة خير من القانون، والشعب لا يقاد بالقانون، بل بالأخلاق فلو حاول الحاكم أن يرشد الشعب عن طريق سن القوانين، وحاول أن يحافظ على النظام عن طريق العنف وفرض العقوبات، فإن نتائج ذلك ستكون سيئة، إذ سيحاول الشعب التملص من ربقة القوانين، وبالتالي يسود الخداع والتمويه والتحايل لتجنب العقوبات في كل مكان أما إذا قادهم عن طريق الأخلاق الطيبة، وكبح جماحهم بقواعد اللياقة لي ، فإن الشعب، على العكس، سيسعى إلى إصلاح نفسه وتقويمها، وتجنب الانحراف عن الحق ومما قاله كونفوشيوس في ذلك :الرعية إذا قدتها بالأحكام وأصلحتها بالعقوبات، ستحاول التخلص منها، وهي غير مستحية من ارتكاب الجرائم، وإذا قدتها بالفضائل وأصلحتها بالآداب، تستحي من ارتكاب الجرائم، وهي صالحة ومعنى هذا أن زيادة الجرائم، وكثرة عدد اللصوص، مرتبط بكثرة القوانين وزيادة الشرائع إن وسيلة الحكم الأولى عنده، هي، إذن، القدوة الصالحة، بما يفيد أن الحاكم يجب أن يكون المثل الأعلى في الحكمة، والقدوة في العدل، حتى ينتهج الناس نهجه، ويحذون حذوه، فيعم السلوك الطيب، وتنصلح أحوال الجميع، ويمضي كل شيء على أحسن حال، دون حاجة إلى إصدار الأوامرأو اللجوء إلى العقوبات ومثل هذه الحكومة، هي بالقطع، حكومة صالحة عظيمة، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، تفرض الاحترام دونما حاجة إلى العنف أو العقاب الذي ينزل بالمخالفين وقد اشتكى أحد تلاميذه من كثرة

اللصوص، وتضايق من وجودهم، فسأل كونفوشيوس عن الطريقة التي تمنع تكاثرهم وازديادهم فأجاب قائلا :إن لم يكن الحاكم جشعا طماعا لا يسرق الأفراد ولو بالمكافأة وهذا يفيد أن الحاكم إذا اتخذ من نفسه أسوة حسنة لرعيته، اقتدى به الأفراد، ونهجوا نهجه؛ وبالتالي يختفي الفساد من المجتمع ويعم الصلاح واستفسر أحد مريديه، في إحدى المرات، عن جدوى قتل الفاسدين ممن لا مبدأ لهم ولا ضمير، وأثر ذلك في إجبار الناس على إطاعة القوانين لصالح أصحاب المبادئ والضمائر، فأجاب :وما حاجتك يا سيدي إلى القتل في قيامك بأعباء الحكم؟ إن الناس يقتدون بالحاكم، فلو صلح حاله صلحت أحوالهم ولو ساءت أموره ساءت أمورهم، وإذا كانت نيته الصريحة فعل الخير، يصبح الناس أخيا را إن العلاقة بين الحاكم والمحكومين لشبيهة بالعلاقة بين الريح والأعشاب البرية، فالأعشاب تنحني إذا هبت عليها الريح القوية ولعل هذا هو السبب في اتهام بعض العلماء كونفوشيوس بالفوضوية نظرا لاعتقاده بأن الحكومة والنظام والقانون الوضعي سوف لا يكون هناك داعٍ لوجودها يوما ما ولكن كونفوشيوس، في حقيقة الأمر، لم يكن فوضويا أو متطرِّفاً، إذ أدرك الحاجة إلى حكومة صالحة، وهاجم مساوئ الحكومات الظالمة التي كانت فاشية في عصره، واعتقد أن الأفراد إذا تخلقوا بالأخلاق القويمة، وكان الحاكم نفسه عادلا قويما، فإن هذا كفيل بجعلهم يسيرون بشكل طبيعي تلقائي دون حاجة إلى قوانين أو عقوبات وهو بهذا يقف موقِّفا مناقضا لجماعة القانونيين التي كانت تعاصره،وترى في القانون أداة الحكم الأولى لتقويم الأخلاق وقيادةالشعب

إنسانية الأخلاق الكونفوشيوسية:

وتتميز الأخلاق عند كونفوشيوس بالنسبية، بالأصالة والتطور فإذا كان الله هو مصدر القانون الأخلاقي، فإن جوهره الصحيح وكيانه الحقيقي يوجدان في كل منا بشكل كامل، ولا يمكن لهذا القانون الأخلاقي أن ينفصل عنا بأي حال من الأحوال ومعنى هذا أن المطلق ينبجس في النسبي، وينخرط في نسبية الظواهر

ولكن لما كان هذا القانون الأخلاقي صعب المنال، لا يستطيع أن يصل إليه لا عامة الناس، ولا حتى فضلائهم، أصبح لزاما علينا أن نتخذ الناس وأفعالهم الإنسانية معايير أو مقاييس بعضهم لبعض ويعني هذا أن الإنسان هو مقياس الأخلاق، وذلك بالنظر إلى صعوبة اتخاذ القانون الإلهي مقياسا لهذه الأخلاق، وما يترتب على هذا من انعدام وجود فضلاء أو أفراد مثاليين ولكن هذه الأخلاق، رغما عن هذا، اعتبرت الأخلاق المثالية أقرب دنوا من هذا القانون ويعبر كونفوشيوس عن هذه المعاني فيقول: إن الإنسانية الصحيحة الفضيلة تتطلب قدرة جبارة، والطريق إليها صعب المنال فأنت لا تستطيع أن تلمسها بالأصابع ولا أن تصل إليها سيرا على الأقدام، وعلى ذلك فالفرد الذي يستطيع أن يقترب منها أكثر من الآخرين يعتبر فاضلا ومن ثم إذا قاس الإنسان الناس بمقياس الفضيلة المطلق فسيكون من المستحيل أن نجد شخصا فاضلا ولكنه إذا قاس الناس بعضهم ببعض فإن الأفضل منهم يعتبر مقياسا لغيره ومعنى هذا أن الأفراد الذين يقتربون من هذا المعيار أو المقياس أو القانون الأخلاقي أكثر من غيرهم يعتبرون فضلاء؛ ومن ثم يعتبرون مقاييس للأخلاق الفاضلة لسلوك غيرهم من الأفراد وعلى الرغم من قوة المعتقد الديني لكونفوشيوس، إلا أنه لم يتخذه أسا سا لفكره خاصة الفكر الأخلاقي منه، وإنما آثر فصل الأخلاق عن عالم ما بعد الطبيعة ، وصرف الأنظار عن خوارق الطبيعة والغيبيات، وأعطى، في مقابل ذلك، اهتما ما أكبر للعالم الدنيوي، ولمشكلات المجتمع البشري الجوهرية، ولرسم العلاقات التي يجب أن تسود بين أفراد هذا المجتمع لقد وضع أخلاقياته على أساس طبيعة الإنسان والمجتمع، واعتبرهما مصدر المثل العليا والمعاييرالأخلاقية ومما يؤكد عمق البعد الإنساني في الأخلاق عند كونفوشيوس، واعتبار طبيعة الإنسان وإمكانيات هذه الطبيعة معايير لهذه الأخلاق قوله في هذا الشأن: إن الطريق الصحيح أو قاعدة السلوك السليم التى على الأفراد اتباعها ليست ببعيدة عنهم؛ لأن الأفراد إذا استنوا قاعدة للسلوك بعيدة عنهم، فمعنى ذلك أنها لا تتفق وطبيعتهم

الإنسانية، وكل قاعدة للسلوك الأخلاقي تتنافى مع الطبيعة الإنسانية يجب استبعادها وعدم الأخذ بها ويقول أيضا :إن الإنسان هو الذي يجعل الصدق عظي ما، وليس الصدق هو الذي يجعل الإنسان عظيما فالإنسان، إذن هو مصدر القيم، ومقياس الأخلاق الفاضلة، والذي يجعل الناس مقاييس ومعايير بعضهم لبعض هو أن الطبيعة الإنسانية، وما تتميز به من عواطف وأفكار ومشاعر وانفعالات، واحدة في كل فرد من أفراد النوع الإنساني، فيما يرى ذلك كونفوشيوس فما يصدق على فرد يصدق على كل الأفراد، وما يشعر به إنسان يشعر به الناس جميعا وبنا ءعلى وجود مثل هذه الطبيعة الإنسانية الواحدة في كل فرد من الأفراد، يجب، إذن، على الإنسان ألا يعامل الناس بما لا يرضى أن يُعامَل به الطبيعة الإنسانية: أقر كونفوشيوس القول بخيرية الطبيعة الإنسانية،وأن الإنسان خير بطبعه، يبحث دائما عن الخير ومعاييره ومما قاله في هذا المعنى :إن الناس يولدون خيرين سواسية بطبيعتهم، ولكنهم كلما شبوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجيا وفق ما يكتسب من عادات ويقول أيضا :إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة، فإذا افتقد الإنسان هذه الاستقامة أثناء حياته افتقد معها السعادة ويرى أن سبيلنا إلى الأفعال الخيرة هو تمسكنا بالقانون الأخلاقي الإلهي الذي يحقق صلاح الفرد والمجتمع وإذا كان الناس، بطبيعتهم، خيرين صالحين مستقيمين، فإن الحيوانات، في مقابل ذلك، ذات طبائع شريرة؛ ولذلك اعتقد الكونفوشيون أن الأشرار من طبيعة حيوانية غير مستقيمة ونلحظ هنا تشاب ها كبي را بين فكر كونفوشيوس، وفكر -جان جاك روسو الذي ظهر في العصر الحديث، واقر هو الآخر بخيرية الإنسان واستقامته الفطرية، وأن المدينة لم تفعل شيئًا سوى أنها سلبت الإنسان حريته، وأفسدت خيريته عندما قيدته بالقوانين والواجبات، وقد تحسر روسو على أيام البشرية الأولى،وتمنى عودة هذه الأيام وتلعب التربية، إلى جانب الموسيقى عند كونفوشيوس، دورا كبيرا في إزالة صدأ النفوس، وما علق بها من أدران الشر، كما تعملان على تهذيب النفوس، وتجميلها بالفضائل حتى تعود إلى طبيعتها

الخيرة الأولى مما سبق يتبين أن نظام كونفوشيوس الأخلاقي يقوم على الفهم الكامل للطبيعة الإنسانية، من حيث كونها طبيعة عاقلة واجتماعية، مع ملاحظة أنه:أولا :لا يعتبر الفرد كائنًا مستقلا عن المجتمع، أو يعيش بمعزل عنه
ثانيا :لا يُنظر إلى المجتمع كنوع من الكيان الميتافيزيقي الذي يلغي وجوده وجود الفرد، بحيث لا يصبح للفرد وجود ما لم يكن مندمجا فيه تمام الاندماج وقد نشأت رؤية كونفوشيوس هذه من إيمانه بمبدأين هامين:
الأول :أن الأفراد مخلوقات اجتماعية، يلعب المجتمع دورا كبيرا في تشكيلهم إلى ما هم عليه ولما كان المجتمع من ناحية أخرى، يخضع لتأثير أفعال أفراده، كل وفًقا لاستعداده، فإن المجتمع يشكله الأفراد الذين يكونونه بالصورة التي هو عليها فالتأثير والتأثر، متبادلان، إذا، بين الفرد والمجتمع الثاني :استحالة انسحاب الفرد من المجتمع، نظرا لما يتمتع به من يقظة ضمير تصده عن إتيان هذا الفعل الغريب عن طبيعته ويستنتج كونفوشيوس من هذين المبدأين، نتيجة هامة مفادها أنه من أكبر الأخطاء أن ينسحب الفرد من المجتمع، ويتحول إلى شخص انعزالي زاهد في الحياة، بل على كل فرد أن يحرص على أن يكون عضوا مهما عاملا في المجتمع، ونافعا في نطاقه يضاف إلى ما سبق أن على الفرد أن يحذر من أن يتحول إلى أسير للمجتمع يتبع أوضاعه وأعرافه المجافية لمنحاه الخلقي دون تفكير أو روية، بل الواجب عليه إذا ما بدا له أن ممارسة هذه الأعراف والتقاليد فيها فساد أو ضرر، أن يعمل على هداية المجتمع إلى الصواب وأن يدفع به إلى السير في الاتجاه السليم أما إذا كانت هذه الأعراف والتقاليد معقولة أو لا ضرر منها فعليه مجاراتها والعمل بها وإذا كان أرسطو الفيلسوف اليوناني، سوف يقرر من بعد ذلك، أن الإنسان كائن اجتماعي بفطرته، لا ينشد من أفعاله إلا ما هو خير فإننا سنجد عكس هذا القول تماما، في العصر الحديث، عند كل من ماكيافللي، وهوبز، واسبينوزا فطبيعة الإنسان عند المفكر الإيطالي ماكيافللي ليست خيرة، ولكنها شريرة ويرى أن البشر أنانيون، شرهون، نفعيون لا يعترفون بالجميل،

وهم كاذبون ومنافقون، شريرون وخبثاء، وخبثهم هذا لا يزول مع الزمن، ولا يخف مقابل أي حسنة والإنسان في مذهب الفيلسوف الإنجليزي ذئب لأخيه الإنسان، وعند -توماس هوبز شرير بفطرته، أناني يؤثر مصلحته على كل اعتبار، ينفر بطبعه من الاجتماع بغيره من الناس وكل فرد عنده في خشية أن يقضي عليه الآخر، ويرغب في تملك كل شيء على حساب الآخرين والحياة هي حرب دائمة بين الفرد والفرد ، وبين الكل والكل فهي حرب من قبل الجميع ضد الجميع ، حرب لا هوادة فيها ولا رحمة –أما الفيلسوف الهولندي اسبينوزا ، فيرسم للإنسان صورة حقيرة بشعة، ولو أنها صورة خيالية محضة وإنسان اسبينوزا الطبيعي هو نوع من الوحش لا يميز الخير من الشر، لا عقل ولا أدب له أكثر من ذلك أن الإنسان عنده مع ارتقائه إلى الحياة المدنية، يظل منحطا ميت الوعي في المجتمع، كما هو في حال الفطرة ومعنى هذا أن اسبينوزا يعد في عداد القائلين بشرية الطبيعة الإنسانية، خلافًا لما ذهب إليه حكيم الصين كونفوشيوس من حيث القول بخيرية هذه الطبيعة، وميلها الفطري إلى التوحيد بين الخير والجمال، إذ إن الجميل عنده ليس جميلا دون أن يكون خيرا، وأن الخير ليس بخير دون أن يكون جميلا، فالالتزامان الجمالي والخيري مرتبطان ولا تفريق بينهما

آداب اللياقة

أو قواعد السلوك البشري الحميد:

وبما أن العُرف هو عصب المجتمع والرابط بين أجزائه برباط متين، فقد استخدم كونفوشيوس كلمة لي للتعبير عن مجموعة القيم والعادات الأخلاقية والأعراف الاجتماعية المتشابكة التي تحفظ للمجتمع تماسكه وتوازنه وتظهر شخصيته الحضارية، وتوفر للفرد الطمأنينة والسعادة إن كلمة ال لي تعنى حرفيا قواعد السلوك وآداب اللياقة الاجتماعية المثالية، والطقوس والشعائر التي تخلو من التزمت والجمود، وتراعي الظروف والمناسبات الاجتماعية، وتتضمن التوقير

والاحترام لمن تجرَى لهم هذه العادات والأعراف والطقوس والشعائر، تتمثل في أنواع معينة من الطعام ينبغي أن يتناولها الناس في المناسبات المختلفة والمراحل المتباينة من الحياة، كما يعبر عنها أنواع الملابس التي ينبغي أن يرتديها الناس في الأيام المقدسة، وعدد الانحناءات التي ينبغي أن يؤدوها عندما يحيون بعضهم بعضا، والطريقة التي يجب أن يسيروا في الشوارع، فالرجال على الجانب الأيمن، والنساء على الجانب الأيسر

كما تتمثل ال لي أيضا، في شعائر الزواج والولادة والوفاة والجنازة، وشتى أنواع الأضاحي والأعياد، وتنظيم العمل، وقوانين الضيافة، والقواعد التي تسير الحياة بمقتضاها في البلاط، وحياة المستخدمين لقد أصبحت ال لي عند كونفوشيوس، شريعة كاملة للسلوك المهذب، فهي تحكم في ارتداء الثياب، وفي المراعاة الدقيقة للآداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة، بصفة عامة، بل في التصرفات والإيماءات والإشارات بحيث يضاف المظهر الخارجي الملائم إلى السلوك الأخلاقي ومن المعلوم أن الصينيين قد قدسوا آداب اللياقة وقواعد السلوك قبل كونفوشيوس بزمن بعيد؛ لأن الشعب الصيني كان ينقسم منذ قديم الزمان إلى طبقتين: طبقة النبلاء، وطبقة العامة وفي الوقت الذي كان العامة فيه يخضعون للقانون المدني، كان النبلاء غير مقيدين بهذا القانون، بل يخضعون لقانون آداب اللياقة المتميز بالتقاليد العالية الموروثة عن المنازل النبيلة، وعن الأساتذة المبجلين العظام ومن هنا كان احترام كونفوشيوس لهذه الآداب والطقوس والشعائر التي كانت تعد بمثابة قانون مدني مستمد من القانون الأخلاقي العام الخالد غير المكتوب وفي ذلك يقول أحد الباحثين :وتحت سطح التأكيدات الكونفوشية لدقائق الحياة اليومية، يكمن الاعتقاد القديم القائل بأن للطقوس نفسها قوتها السحرية دلالة Li ولكن كونفوشيوس أسبغ على ال لي معنوية، بفضلها يصبح الإنسان إنسانًا ممتلئًا بالقيم، ومتميزا عن الحيوانات الضارية؛ إذ تجعل من الفلاح في كوخه شخصية بارزة لها كرامتها التي لا تقل بأية حال عن شخصية الملك في

قصره وهذا النظام الكونفوشي لقواعد السلوك وآداب اللياقة المشار باتباعها، حتى يعود الناس أنفسهم على حب النظام والطاعة، جعل من الشعب الصيني واحدا من أكثر الشعوب المدققة في الرسميات في التاريخ،كما أكد لكل فرد أنه يمتلك في ذاته قيمة لا متناهية، يمتلكها أيضا الآخرون، وأعطى هذا النظام الشعب أيضا، شعورا باحترام الذات، وشعورا باحترام الآخرين إن ال لي هو دليل رقي الإنسان وتحضره وتمدنه، ومن هنا احتل جانبا كبيرا في برنامج كونفوشيوس التعليمي الذي يجمع ما بين التربية الثقافية والتربية الوجدانية لمساعدة الإنسان على مواجهة الأزمات والمغريات، وعلى أن يحتل مكانًا مرموقًا في المجتمع بوصفه عضوا سعيدا، ونافعا لنفسه وللآخرين فبدلا من الدعوة إلى طابع هزيل من إنكار الذات، كان يغرس في نفوس قومه مثلا أعلى من الأنانية الذكية وكان يرى أنه إذا اعتاد الإنسان أن يمد يد الكرم إلى الآخرين، فإنه بذلك يدخر من الكرم رأس مال لنفسه ففي آخر المطاف من عمل مثقال ذرة خيرا يره ومما قاله كونفوشيوس، أيضا، في المنتخبات : إن من الواجب أن ينظم تعليم النبيل عن طريق ال– لي ، فإذا ما أُعِد شخص على هذه الصورة لمواجهة العالم، فإن له من القوة، على ما يعتقد، ما يمكنه من أن يتمسك بحق مبادئه خلال أية محنة وفي مواجهة كل إغراء الطريق أو السبيل فكرة ال تاو تقوم فلسفة كونفوشيوس، أيضا، على فكرة غاية في الأهمية، وهي فكرة ال تاو التي تعنى الطريق أو السبيل أو المنهج المؤدي إلى غاية سامية وتقوم الأخلاق عنده على التاو لأنها إن لم ترتكز عليه مضت في عكس الطبيعة الإنسانية إن الأخلاق إذا اعتصمت بالتاو أصلحت ذاتها بذاتها، وتقدمت الفضيلة، وغمرت السعادة كافة الجنس البشري ومن هنا فإن ال تاو عند كونفوشيوس لا تحمل معنى صوفيا، أو تتضمن سلوكا انعزاليا، وإن كان لا يغفل تماما مفهوم التصوف لكلمة تاو ، لأن الذي يستمع، عنده، للتاو في الصباح، يستطيع أن يسلم الروح، راضيا، في المساء وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على اهتمامه بالكيف دون الكم، وأن مقياس حياة الإنسان ليس كم طول عمره؟،

ولكن كيف كان نصيبها من العطاء والصلاح إن الإنسان إذا سمع كلمة ال تاو = الطريق وفهمها وعمل بها، تمكَّن من بلوغ أرقى درجات الرقي الأخلاقي، وتحولت حياته إلى حياة سعيدة ومن ناحية أخرى، يعني الطريق عنده، في بعض الأحيان، الاستقامة والحكمة وقد نصح طلابه بأن يكون ولاؤهم للطريق، وحرص على مطالبتهم بأن يلتزموا به دون انحراف، واستجاب مجموعة منهم بالفعل لتعاليمه، فأعلنوا الحرب على الطغيان، وقدموا حياتهم دفاعا عن المبادئ السامية وفداء لها تعني Tao يظهر لنا واضحا أن ال تاو الطريق الرئيسي التي يجب أن يسلكها الأفراد لتحقيق السعادة للبشرية بأسرها في هذه الدنيا تعني المجاملة Li وإذا كانت كلمة ال لي والأخلاق الفاضلة معا، فإن فكرة التاو تتضمن هي الأخرى :دستور سلوك الفرد وقانونه الأخلاقي من ناحية،ومن ناحية أخرى : منهاج الحكومة الذي يضمن لكل فرد، في حالة تطبيقه، أعظم قدر من الرفاهية والسعادة قوام الأخلاق وروح الفضائل :الجن قوام الأخلاق الكونفوشية، هو الجين، الذي يعنى حرفيا كائنين بشريين وبما يفيد، في نفس الوقت، أن وجود الإنسان هو وجود تواصل :فالواحد لأجل الآخر، أو الفرد للمجموعة فإذا كانت الحيوانات تنظم الغرائز حياتها، فتتجمع وتترابط، أو يهرب بعضها من بعض، دون تفكير واعٍ، فإن البشر ينشئون مجتمعاتهم بالتعاون بعضهم مع البعض الآخر، ملتزمين في هذا بالتزام واحد، في ما وراء الغرائز، أن يكونوا بشرا متواصلين متحابين وفى ذلك يقول كونفوشيوس :إن الإنسان ذا الأخلاق الكاملة جين هو الذي يقدم التعب المضني على النافع اللذيذ، ولا يلتفت عند أداء الواجب إلى ما يستفيده منه إن شرط كل تحديد في نظام الخير عنده، هو أن يكون الإنسان بشرا سويا، متعاوِّنا مع الآخر وهذا الجين ليس ببعيد عن الإنسان بل هو قريب منه،وحاضر بالنسبة لكل من يفتش عنه لكي يتفهمه ويدركه، إنه في النهاية يؤلف ذات الإنسان والطريق العملي لتحقيق الواجب، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، هو معرفة هذه الذات الإنسانية ومراقبتها، والإذعان لصوتها الداخلي بعيدا عن الهوى

والغرض ولعلنا نجد هنا تقاربا بين هذا القول وقول سقراط اعرف نفسك بنفسك الذي اتخذه أساسا لفلسفته كلها، مما حدا بمؤرخي الفكر إلى اعتبار هذه المقولة أحد أسباب خلود فلسفة ديكارت حيث صرح بعد اثنين وعشرين قرًنا بقوله: إني لما كشفت الأنا حملت مصباحه الذي على سناه كشفت كل اللأنا إن هذا الجين يتصف بكل الأوصاف الإنسانية الأخلاقية مثل الحكمة، والعدالة، والتقوى، والشجاعة،والشهامة،والنقاءوالرحمة، والعطف، والكرامة، والصدق، والأريحية، وقد أوجب كونفوشيوس على أتباعه، ضرورة التحلي بهذه الفضائل الأخلاقية، والتعبير عنها بالممارسة اليومية من أجل أن يسود المجتمع الانسجام والسلام، ويعَم الخير والسعادة الكون بأسره كما يجب على الإنسان، إلى جانب تمسكه بهذه الفضائل الرئيسية، أن يكون مقلا في كلامه، مكثرا في أفعاله، إذ تعد الثرثرة وكثرة الكلام من أقبح الرذائل ويستقبح كونفوشيوس سلوك الأفراد الذين يملئون العالم بكثرة ثرثرتهم وصياحهم وخطبهم الجوفاء، دون أن يقوموا بأي عمل من الأعمال النافعة، وفي ذلك يقول :ذو المروءة هو الذي يتثاقل عن القول من كان مجودا حديثه متطلَّقا وجهه، قلت مروءته ويقول أيضا في هذا المعنى :قلما يكون الشخص ذو الخطب المؤثرة في المظهر رجلا فاضلا ، إن الكلام المنمق يجعلنا أحيانًا عاجزين عن التفرقة بين ما هو حسن وما هو سيء ، إني أكره جعجعة الخطب، وأخيرا يقول: إن الرجل العاقل لا يحكم على الناس بأقوالهم، بل بأعمالهم، ففي العالم المتحضر نجد المجتمع زاخرا بالأعمال السامية، بينما في العالم المتأخر، أو غير المتحضر نجد المجتمع زاخرا بالخطب الرنانة وينكر كونفوشيوس على الإنسان أن يخادع الآخرين في حقيقة أمره، بل يجب عليه كبيرا كان أم صغيرا، أن يظهر بالمظهر الذي يتفق مع حقيقته، دون خداع أو تمويه، ويسمي هؤلاء الذين يتظاهرون بما ليس فيهم لصوص الفضيلة : أولئك الذين يتعمدون سرقة مزايا غيرهم :فالرجل الذي يظهر في صورة الوقار والقوة، بينما هو في داخلية نفسه فارغ وضعيف، يبدو وكأنه لص صغير يدلف إلى منزل

غيره في الليل ليسرق ما فيه كما يكره أن يتصف الإنسان بصفات المحسوبية أو المحاباة أو الوساطة، ويدعو مريديه إلى التخلق بخلق الكرامة، والابتعاد عن تملق الآخرين، والاكتفاء بالجهد الشخصي والكفاءة للوصول إلى ما يبغي ويريد، ولا يحاول بعد ذلك أن يحمل الآخرين أو يعزو إلى القدر تبعة فشله وإخفاقه، وبهذا وحده يتفادى الرجل العاقل الفاضل الانفعالات والقلق، ويكون بإراداته سعيدا مطمئن البال، مرتاح الفؤاد إن الرجل العاقل الحكيم المهذب الخير الجين لايشكو ولا يتذمر وقت الشدائد والمحن، وهو واضح، وصريح جريء في موضوع لحق وهذا الجين ، في نظر كونفوشيوس، هو نموذج فريد، راقٍ ومتعالٍ، لم يصل إليه أو يبلغه سوى حكماء الماضي العظام

الفضيلة الكاملة

والرجل الأعلى يستمسك أشد الاستمساك بالقاعدة الذهبية التي نص عليها هنا صراحة قبل هلل بأربعة قرون وقبل المسيح بخمسة: فقد سأل جونك جونك المعلم عن الفضيلة الكاملة فكان جوابهمت لا تتمناه لنفسك لا تتمناه لغيرك الفضيلة الكاملة ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يفعل بك وهذا المبدأ يتكرر مراراً وهو دائماً يتكرر في صيغة النفي، وقد ذكر مرة في كلمة واحدة ذلك أن تزه- جونج سأله مرة: أليس ثمة كلمة واحدة يستطيع الإنسان أن يتخذها قاعدة يسير عليها طوال حياته؟ فأجابه المعلم: أليست هذه الكلمة هي المبادلة؟ ، ولكنه لم يكن يرغب فيما يرغب فيه لوَ دْزَه وهو أن يقابل الشر بالخير، فلما أن سأله أحد تلاميذه: ما قولك في المبدأ القائل بأن الإساءة يجب أن تجزى بالإحسان؟ أجاب بحدة لم يألفها تلاميذه منه: وبأي شيء إذن تجزي الإحسان؟ لتكن العدالة جزاء الإساءة، وليكن الإحسان جزاء الإحسان وكان يرى أن القاعدة الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى هي العطف الفياض على الناس جميعاً والرجل الأعلى لا يغضبه أن يسمو غيره من الناس، فإذا رأى أفاضل الناس فكر في أن يكون مثلهم؛ وإذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره؟ وهو لا يبالي أن يفتري عليه

الناس أو يسلقوه بألسنة حداد، بمعنى آخر مجامل بشوش لجميع الناس، ولكنه لا يكيل المدح جزافاً؛ لا يحقر من هم أقل منه، ولا يسعى لكسب رضاء من هم أعلى منه، وهو جاد في سلوكه وتصرفاته، لأن الناس لا يوقّرون من لا يلتزم الوقار في تصرفاته معهم؛ متريث في أقواله، حازم في سلوكه، يصدر في أعماله عن قلبه؛ غير متعجل بلسانه ولا مولع بالإجابات البارعة السكاتة؛ وهو جاد لأن لديه عملاً يحرص على أدائه - وهذا هو سر مهابته غير المتكلفة؛ وهو بشوش لطيف حتى مع أقرب الناس إليه وألصقهم به، ولكنه يصون نفسه عن التبذل مع الناس جميعاً حتى مع ابنهويجمع كنفوشيوس صفات رجله الأعلى الكثير الشبه برجل أرسطو ذي العقل الكبير في هذه العبارة يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور لا ينفك يقلبها في فكره فأما من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح، وأما من حيث وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشاً ظريفاً ؛ وأما من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقوراً ؛ وفي حديثه يحرص على أن يكون مخلصاً ؛ وفي تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته، وأن يبعث الاحترام فيمن معه ؛ وفي الأمور التي يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس ؛ وإذا غضب فكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب ؛ وإذا لاحت له المكاسب فكر في العدالة والاستقامة

ومن أقواله: إن أخلاق الرجل تكونها القصائد وتنميها المراسم أي آداب الحفلات والمجاملات وتعطرها الموسيقي وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهياً لا يلجأ فيه إلى الكتابة ، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وذلك مصدر لا يوثق به وقد ترك إلى الفلاسفة مثلاً قل أن يعبئوا به- وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم في دحض حججهم ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم في رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقليةومن أقواله في هذا المعنى:ذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول: ماذا أرى في هذا؟ فإني لا أستطيع

أن أفعل له شيئاً وإني لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه في صدره وإذا ما عرضت ركناً من موضوع ما على إنسان ، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فإني لا أعيد عليه درسي ولم يكن يشك في أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللذان لا يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء ، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الإنسانية بأمانة وإخلاص دون أن تصلح دراستها من خلقه وعقله وليس من السهل أن نجد إنسانا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنساناً صالحاً ولم يكن له في بادئ الأمر إلا عدد قليل من التلاميذ ، ولكن سرعان ما تواترت الإشاعات بأن وراء شفتي الثور والفم الواسع كالبحر قلباً رقيقاً وعقلاً يفيض بالعلم والحكمة ، فألتف الناس حوله حتى استطاع في آخر أيام حياته أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغلوا مراكز خطيرة في العالموكان بعض الطلبة- وقد بلغ عددهم في وقت من الأوقات سبعين طالباً- يعيشون معه كما يعيش الطلبة الهنود المبتدئون مع مدرسيهم الجورو؛ ونشأت بين المدرس وتلاميذه صلات ود وثيقة دفعت هؤلاء التلاميذ في بعض الأحيان إلى الاحتجاج على أستاذهم حين رأوه يعرّض نفسه للخطر أو اسمه للمهانة وكان رغم شدته عليهم يحب بعضهم أكثر مما يحب ابنه ، ولما مات هُوِي بكى عليه حتى قرحت دموعه مآقيه وسأله دوق جاي يوماً من الأيام أي تلاميذه أحبهم إلى المعلم فأجابه:لقد كان أحبهم إلى العلم ين هُوِى ، لقد كان يحب أن يتعلم ولم أسمع بعد عن إنسان يحب أن يتعلم كما كان يحب هُوِي لم يقدم لي هُوِي معونة ، ولم أقل قط شيئاً لم يبتهج له وكان إذا غضب كظم غيظه ؛ وإذا أخطأ مرة لم يعد إلى خطئه ومما يؤسف له أنه كان قصير الأجل فمات وليس له في هذا الوقت نظير وكان الطلبة الكسالى يتحاشون لقاءه فإذا لقيهم قسا عليهم ، وذلك لأنه لم يكن يتورع عن أن يعلم الكسول بضربة من عكازته ويطرده من حضرته دون أن

تأخذه به رأفة ومن أقواله: ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم ، دون أن يجهد عقله في شيء

لا يتواضع في شبابه التواضع الخليق بالأحداث ، ولا يفعل في رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر- إن هذا الإنسان وباء وما من شك في أنه كان يبدو غريب المنظر وهو واقف في حجرته أو في الطريق العام ، يعلم مريديه التاريخ والشعر والآداب العامة والفلسفة ، ولا يقل استعداده وهو في الطريق عن استعداده وهو في حجرته وتمثله الصور التي رسمها له المصورون الصينيون في آخر سني حياته رجلاً ذا رأس أصلع لا تكاد تنمو عليه شعرة ، قد تجعد وتعقد لكثرة ما مر به من التجارب ، ووجه ينم عن الجد والرهبة ولا يشعر قط بما يصدر عن الرجل في بعض الأحيان من فكاهة ، وما ينطوي عليه قلبه من رقة ، وإحساس بالجمال مرهف يُذكّر المرء بأنه أمام إنسان من الآدميين رغم ما يتصف به من كمال لا يكاد يطاق ، وقد وصفه في أيام كهولته الأولى مدرس له كان ممن يعلمونه الموسيقى فقال: لقد تبينت في جونج- تي كثيراً من دلائل الحكمة ، فهو أجبه واسع العين ، لا يكاد يفترق في هذين الوصفين عن هوانج- دي

وهو طويل الذراعين ذو ظهر شبيه بظهر السلحفاة ، ويبلغ طول قامته تسع أقدام صينية وست بوصات وإذا تكلم أثنى على الملوك الأقدمين ، وهو يسلك سبيل التواضع والمجاملة ؛ وما من موضوع إلا سمع به ، قوي الذاكرة لا ينسى ما يسمع ؛ ذو علم بالأشياء لا يكاد ينفد ألسنا نجد فيه حكيماً ناشئاً؟ وتعزو إليه الأقاصيص تسعاً وأربعين صفة عجيبة من صفات الجسم يمتاز بها عن غيره من الناس ولما فرّقت بعض الحوادث بينه وبين مريديه في أثناء تجواله ، عرفوا مكانه على الفور من قصة قصها عليهم أحد المسافرين ، قال إنه التقى برجل بشع الخلقة ذي منظر كئيب شبيه بمنظر الكلب الضال ولما أعاد هذا القول على مسامع كنفوشيوس ضحك منه كثيراً ولم يزد على أن قال: عظيم عظيم وكان كنفوشيوس معلماً من الطراز القديم يعتقد أن التنائي عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم

ضروريان لنجاح التعليم وكان شديد المراعاة للمراسم ، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل ما في وسعه للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة ويلوح أنه كان يزكي نفسه في بعض الأحيان ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوماً من الأيام مقالة فيها بعض التواضع- قد يوجد في كفر من عشر أسر رجل في مثل نبلي وإخلاصي ، ولكنه لن يكون مولعاً بالعلم مثلي

وقال مرة أخرى:قد أكون في الأدب مساوياً لغيري من الناس ، ولكن خلق الرجل الأعلى الذي لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد لو وجد من الأمراء من يوليني عملاً لقمت في اثني عشر شهراً بأعمال جليلة، ولبلغت الحكومة درجة الكمال في ثلاث سنين ونستطيع أن نقول بوجه عام إنه كان متواضعا في عظمته ويؤكد لنا تلاميذه أن المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب ؛ كان لا يجادل وفي عقله حكم سابق مقرر ، ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيداً ولا أنانياً وكان يصف نفسه بأنه ناقل غير منشئ وكان يدعي أن كل ما يفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلمه من الإمبراطورين العظيمين يو و شون وكان شديد الرغبة في حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولكنه لم يكن يقبل أن يتراضى على شيء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما وكم من مرة رفض منصباً رفيعاً عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول:لست أبالي مطلقاً إذا لم أشغل منصباً كبيراً، وإنما الذي أعنى به أن أجعل نفسي خليقاً بذلك المنصب الكبير وليس يهمني قط أن الناس لا يعرفونني؛ ولكنني أعمل على أن أكون خليقاً بأن يعرفني الناس وكان من بين تلاميذه أبناء هانج هِي ، أحد وزراء دوق لو، وقد وصل كنفوشيوس عن طريقهم إلى بلاط ملوك جو في لو- يانج ، ولكنه ظل بعيداً بعض البعد عن موظفي البلاط ، وآثر على الاقتراب منهم زيارة الحكيم لو- دزه وهو على فراش الموت كما سبق القول فلما عاد إلى لو وجدها مضطربة ممزقة الأوصال بما قام فيها من نزاع

وشقاق ، فانتقل منها إلى ولاية تشي المجاورة لها ومعه طائفة من تلاميذه مخترقين في طريقهم إليها مسالك جبلية وعرة مهجورة ولشد ما كانت دهشتهم حين أبصروا في هذه القفار عجوزا تبكي بجوار أحد القبور فأرسل إليها كنفوشيوس تسه- لو يسألها عن سبب بكائها وحزنها ، فأجابته قائلة: إن والد زوجي قد فتك به نمر في هذا المكان ، ثم ثنى النمر بزوجي ، وهاهو ذا ولدي قد لاقى هذا المصير نفسه ولما سألها كنفوشيوس عن سبب إصرارها على الإقامة في هذا المكان الخطر ، أجابته قائلة: ليس في هذا المكان حكومة ظالمة فالتفت كنفوشيوس إلى طلابه وقال لهم: أي أبنائي اذكروا قولها هذا ؛ إن الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر ومثل كنفوشيوس بين يدي دوق تشي وسرّ الدوق من جوابه حين سأله عن ماهية الحكومة الصالحة: توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً ، والوزير وزيراً ، والأب أباً والابن ابناً ، وعرض عليه الدوق نظير تأييده إياه خراج مدينة لن -شيو ، ولكن كنفوشيوس رفض الهبة وأجابه بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذا الجزاء وأراد الدوق أن يحتفظ به في بلاطه وأن يجعله مستشاراً له ، ولكن جان ينج كبير وزرائه أقنعه بالعدول عن رأيه وقال له: إن هؤلاء العلماء رجال غير عمليين لا يستطاع تقليدهم ؛ وهم متغطرسون مغرورون بآرائهم ، لا يقنعون بما يعطى لهم من مراكز متواضعة وللسيد كونج هذا من الخصائص ما يبلغ الألف عداً ولو أردنا أن نلم بكل ما يعرفه عن مراسم الصعود والنزول لتطلب منا ذلك أجيالاً طوالاً ولم يثمر هذا اللقاء ثمرة ما ، وعاد كنفوشيوس على أثره إلى لو وظل يعلم تلاميذه فيها خمسة عشر عاماً أخرى قبل أن يستدعى ليتولى منصباً عاماً في الدولة وواتته الفرصة حين عُيّن في أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة في مدينة جونج- دو وتقول الرواية الصينية إن المدينة في أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة ، فكان إذا سقط شيء في الطريق بقي حيث هو أو أعيد إلى صاحبه ولما رقاه الدوق دنج دوق لو إلى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع في مسح أرض الدولة

وأدخل إصلاحات جمة في الشئون الزراعية ، ويقال أنه لما رقي بعدئذ وزير للجرائم كان مجرد وجوده في هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة وفي ذلك تقول السجلات الصينية: لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلاّ برأسيهما واختفيا ، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال ، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى ، وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب إن في هذا الإطراء من المبالغة ما يجعله موضع الشك ؛ وسواء كان خليقاً به أو لم يكن فإنه كان أرقى من أن يعمر طويلاً وما من شك في أن المجرمين قد أخذوا يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للإيقاع به ويقول المؤرخ الصيني: إن الولايات القريبة من لو دب فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة لو الناهضة ودبّر وزير ماكر من وزراء تشي مكيدة ليفرق بها بين دوق لو وكنفوشيوس، فأشار على دوق تشي بأن يبعث إلى تنج بسرب من حسان الفتيات المغنيات وبمائة وعشرين جواداً تفوق الفتيات جمالاً

وأسرت البنات والخيل قلب الدوق فغفل عن نصيحة كنفوشيوس وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح هو القدوة الصالحة ، فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة إهمالاً معيباً وقال دزه لو لكنفوشيوس: أيها المعلم لقد آن لك أن ترحل واستقال كنفوشيوس من منصبه وهو كاره ، وغادر لو ، وبدأ عهد تجوال وتشرد دام ثلاثة عشر عاماً وقال فيما بعد إنه لم ير قط إنساناً يحب الفضيلة بقدر ما يحب الجمال والحق أن من أغلاط الطبيعة التي لا تغتفر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً ما يأتيان منفصلين لا مجتمعين وأصبح المعلم وعدد قليل من مريديه المخلصين مغضوباً عليهم في وطنهم ، فأخذوا يتنقلون من إقليم إلى إقليم ، يلقون في بعضها مجاملة وترحاباً ، ويتعرضون في بعضها الآخر لضروب من الحرمان والأذى وهاجمهم الرعاع مرتين ، وكادوا في يوم من الأيام يموتون جوعاً ، وبرّح بهم ألم الجوع حتى شرع تْزَه- لو نفسه يتذمر ويقول إن حالهم لا تليق بالإنسان الراقي وعرض دوق وى على كنفوشيوس أن يوليه رياسة حكومته،

ولكن كنفوشيوس رفض هذا العرض ، لأنه لم تعجبه مبادئ الدوق وبينما كانت هذه الفئة الصغيرة في يوم من الأيام تجوس خلال تشي إذ التقت بشيخين عافت نفسهما مفاسد ذلك العهد ، فاعتزلا الشئون العامة كما اعتزلها لو دزه ، وآثرا عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة الحياة العامة وعرف أحد الشيخين كنفوشيوس ، ولام تْزَه- لو ، على سيره في ركابه ، وقال له: إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف ، ومن ذا الذي يستطيع أن يبدل لكم هذه الحال؟ أليس خيراً لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله ، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج من ولاية إلى ولاية؟ وفكر كنفوشيوس في هذا اللوم طويلاً ولكنه لم يفقد رجاءه في أن تتيح له ولاية من الولايات فرصة يتزعم فيها حركة الإصلاح والسلم

ولما بلغ كنفوشيوس التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش لو وأرسل ثلاثة من موظفيه إلى الفيلسوف يحملون إليه ما يليق من الهدايا بمقامه العظيم ، ويدعونه أن يعود إلى موطنه وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززاً مكرماً ، وكثيرا ما كان يتردد عليه زعماء لو يستنصحونه ، ولكنه أحسن كل الإحسان بأن قضى معظم وقته في عزلة أدبية منصرفاً إلى أنسب الأعمال وأحبها إليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين ولما سأل دوق شي تْزَه- لو عن أستاذه ولم يجبه هذا عن سؤاله ، وبلغ ذلك الخبر مسامع كنفوشيوس ، قال له: لِمَ لم تجبه بأنه ليس إلا رجلاً ينسيه حرصه على طلب العلم الطعام والشراب ، وتنسيه لذة طلبه أحزانه، وبأنه لا يدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه وكان يسلي نفسه في وحدته بالشعر والفلسفة ، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله

<u>الموسيقى</u>

ترتبط الموسيقى، عند كونفوشيوس، بالأخلاق ارتبا طا وثيقا، ومن هنا تظهر أهميتها للإلمام بالأخلاق السامية، واعتبارها من ناحية أخرى، خير وسيلة لعلاج

فساد الأخلاق والعادات وفي ذلك يقول: إذا أتقن الإنسان الموسيقى، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها، تطهر قلبه وصار قلبا طبيعيا سليما رقيًقا، عامرا بالإخلاص والوفاء، يغمره السرور والبهجة وخير السوائل لإصلاح الأخلاق والعادات، أن تو جه العناية إلى الموسيقى التي تعزف في البلاد ومعنى هذا أن إدراك أسرار الأخلاق يتوقف على فهم الإنسان للموسيقى حق الفهم، فالخير شديد الصلة بالموسيقى، والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام

ولما كان الجمال مرتبطا، عنده بالخير، فإن الموسيقى بمساعدتها لأفراد على حب الجمال وتذوقه

كتاب الطقوس

تساعدهم، في نفس الوقت، على حب الخير وإتيانه، وعلى التفرقة بين الخير والشر وبما أن الموسيقى الرفيعة، هي دائما موسيقى سهلة،فكذلك الأخلاق السامية الرفيعة هي بسيطة على الدوام والموسيقى الأرفع تبدد الثورة، والأخلاق الأسمى تبدد الخصام وبالنظر إلى أهمية الموسيقى ودروها الهام في المجتمع، فقد أوجب كونفوشيوس تعليم الموسيقى للناس أجمعين، سواء في ذلك أصحاب المواهب العليا أو أصحاب المواهب المتوسطة ومما يكشف عن أصالة فكر كونفوشيوس هو توظيفه الموسيقى خاصة، والفنون بصفة عامة، مثل الشعر والغناء لخدمة المجتمع وعلاج أمراضه فالموسيقى عنده ليست مجرد ترف عقلي أو مجرد لذة فردية أو استمتاع ذاتي، بل تستهدف القضاء على الأمراض الاجتماعية بإشاعة الوئام محل الخصام، والمحبة والرحمة والعدل محل الكراهية والقسوة والظلم، وبهذا سبق أرسطو فيما قام به من بعد ذلك في العصر القديم، وابن سينا في العصر لوسيط، من حيث استخدام الموسيقى في التطهير النفسي، وعلاج الأمراض الشاذة وتصدر الموسيقى والألحان، عنده، عن النفس أو القلب، عندما تتأثر بحوادث العالم الخارجي، اجتماعية كانت أو طبيعية، و لما كان القلب عنده مشتملا على أوتار مختلفة، يرتبط كل منها بانفعال نفسي معين، فعندما تمس

الحوادث الجارية وترا من هذه الأوتار، فإن الإنسان يعبر عنها بشكل معين ومنظم تنظيما خا صا :فالنغم اللطيف الرقيق هو نتيجة تأثير الأحداث على وتر الحب والنغم القوي المرتفع الخشن ينشأ نتيجة تأثر وتر الغضب بهذه الأحداث والنغم الهادئ البسيط النقي هو نتيجة مس الأحداث لوتر التقوى والتعبد أما النغم الحزين الكئيب، فينشأ نتيجة لتأثر وتر الحزن، وينشأ النغم المرح البهيج نتيجة لتأثر وتر الفرح، والنغم الهادئ نتيجة لتأثر وتر الارتياح بهذه الأحداث ويرى كونوشيوس أن هذه الأنغام الستة ، لا تحدث بشكل تلقائي أو عشوائي، وإنما تنشأ نتيجة تأثر الإنسان بالظروف التي تحيط به في العالم الخارجي، ومن هنا فإن الموسيقى تعتبر خير معبر عن أحوال النفس الإنسانية وما يحيط بها من أحداث ولكننا، من ناحية أخرى، نستطيع أن نستخدم الموسيقى في التأثير على الأفراد، وعلاج أمراضهم النفسية والاجتماعية، وإشاعة المحبة والتضامن والوئام بينهم، وهذا هو ما كان يفعل ملوك الصين القديمة مع رعاياهم، فيما يقول كونفوشيوس، إذ كانوا يستعينون بالفنون عامة، والموسيقى بوجه خاص، في سبيل إيجاد الوفاق والانسجام بين قلوبهم، والابتعاد بهم عن الماديات فالموسيقى، إذن، هي السبيل الوحيد لإرجاع الأفراد إلى طبيعتهم الخيرة، بعيدا عن الماديات والحقد والشرور، بتوجيههم إلى القيم الأخلاقية السامية والمثل العليا الرفيعة والحكيم أو الرجل النبيل، هو الذي يمتاز عن غيره في حسن اختيار الموسيقى المناسبة التي ترجع الأفراد إلى طبيعتهم الإنسانية الأولى الخيرة التي تتميز بالوئام والوفاق وقد نجح كونفوشيوس في الربط، أيضا، بين الموسيقى التي تسود العالم المرئي، والأرواح والآلهة التي تسود العالم اللامرئي، إذ إن الموسيقى تصدر عن النفس الإنسانية التي مصدرها السماء أو الآلهة وتظهر هنا أهمية الموسيقى وآداب اللياقة، ودورهما الفعال في التربية والانسجام الكوني فإذا كان دور الموسيقى، يتمثل، كما أشرنا، في إشاعة المحبة والألفة بين الأفراد من جهة والآلهة من جهة أخرى، فإن الطقوس آداب اللياقة :لي تلعب هي الأخرى دورا كبيرا في تنشئةالأفراد على

احترام حقوق الآخرين، والنظام والتضحية في سبيل الواجب، كما تعودهم طاعة الأوامر الإلهية، وتبين لهم منزلة الآلهة، وباتحاد الموسيقى، التي هي من عالم علوي، والطقوس التي هي من عالم أرضي، تتحد الأرض و السماء، ويسودهما الانسجام والألفة والمحبة، أي بين العالمين اللامرئي والمرئي فالموسيقى والطقوس هما أساس تنظيم شئون الكون والعلاقات الإنسانية بين الأفراد من جهة، والآلهة من جهة أخرى ويشترط كونفوشيوس دوام علاقة المحبة بين أفراد أسرة الجنس البشري، حتى يكون للموسيقى نفع وفائدة إنه لا قيمة للطقوس أو الشعائر والموسيقى، عند إنسان، يخلو قلبه من أحاسيس الشفقة والمحبة والألفة والرحمة ولما كانت الموسيقى تعتبر مرآة صادقة صافية تنعكس عليها نفسيات الشعوب وعاداتها وتقاليدها ونظمها الاجتماعية والسياسية، فإنها تستطيع أن تكشف عن مدى ما و صلت إليه الشعوب من تحضر ورقي أو انحطاط وانحلال وتفكك، فموسيقى مضطربة غاضبة شعب فوضوي منحط، وموسيقى هادئة مرحة شعب مستقر مطمئن،وموسيقى حزينة شعب مفكك منحل

الباب الخامس
آثاره

علي الأمة الصينية

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولكنه كان نجاحاً كاملاً لقد كان يضرب في فلسفته على نغمة سياسية عملية حببتها إلى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل احتمال لإصراره على تحقيقها وإذ كان رجال الأدب في كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب ، فإن أدباء القرون التي أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد استمساك بمبادئه ، واتخذوها سبيلاً إلى السلطان وتسلم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلماء الكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة في الإمبراطورية بأجمعها وانتشرت المدارس في أنحاء البلاد لتعلم الناس فلسفة كنفوشيوس التي تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم الأكبر ، ونماها مِنْشِيس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية في الصين فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التي تدهورت فيها البلاد من الوجهة السياسية ، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعي في العصور المظلمة التي تلت سقوط روما

وكانت في البلاد طائفة أخرى هي طائفة القانونيين استطاعت أن تناهض وقتاً ما آراء كنفوشيوس في عالم السياسة ، وأن تسير الدولة حسب مبادئها هي في بعض الأحيان ومن أقوالهم في الرد على كنفوشيوس أن نظام الحكم على المثل الذي يضربه الحاكمون ، وعلى الصلاح الذي تنطوي عليه قلوب المحكومين ، يعرّض الدولة لأشد الأخطار ، إذ ليس في التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التي تسترشد في أعمالها بهذه المبادئ المثالية وهم يقولون أن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الحكام ، وإن الناس يجب أن يرغموا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين ولم يبلغ الناس

من الذكاء مبلغاً يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم ، ولهذا فإنهم لا يصيبون الرخاء إلا تحت حكم جماعة من الأشراف ؛ وحتى التجار أنفسهم ، وإن أثروا ، لا يدل ثراؤهم على أنهم متفوقون في ذكائهم ، فهم يسعون وراء مصالحهم الخاصة ، وكثيرا ما يتعارض سعيهم هذا مع مصالح الدولة ويقول بعض القانونيين إنه قد يكون من الخير للدولة أن تجعل رؤوس الأموال ملكاً عاماً للمجتمع ، وأن تحتكر هي التجارة ، وأن تمنع التلاعب بالأثمان وتركيز الثروة في أيدي عدد قليل من الأفراد هذه آراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت إلى الظهور مرة بعد مرة في تاريخ الحكومة الصينية ولكن فلسفة كنفوشيوس كتب لها النصر آخر الأمر وسنرى فيما بعد كيف سعى شي هوانج دي ، صاحب الحول والطول ، يعاونه رئيس وزراء من طائفة القانونيين ، للقضاء على نفوذ كنفوشيوس ، فأمر أن يحرق كل ما كان موجوداً وقتئذ من الكتابات الكنفوشية ولكن تبين مرة أخرى أن قوة اللسان أعظم من قوة السنان ولم يكن لعداء الإمبراطور الأول من نتيجة إلاّ أن يجعل الكتب التي أراد أن يعدمها كتباً مقدسة قيمة ، وأن يستشهد الناس في سبيل المحافظة عليهاحتى إذا انقضى عهد شي هوانج- دي ، وعهد أسرته القصير الأجل ، وجلس على العرش إمبراطورأحكم منه ، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابئها وعيّن العلماء الكنفوشيين في مناصب الدولة ، وثبّت حكم أسرة هان ، وقوى دعائمه ، بأن أدخل آراء كنفوشيوس وأساليبه الحكيمة في برامج تعليم الشبان الصينيين وفي الحكومة وقربت القرابين تكريماً لكنفوشيوس ، وأمر الإمبراطور بأن تنقش نصوص الكتب القديمة على الحجارة ،وأصبحت الكنفوشية دين الدولة الرسمي وناهض الكنفوشية في بعض الأحيان نفوذ الدَّوية ، كما طغى عليها أحياناً أخرى سلطان البوذية ، حتى إذا كان عهد أسرة تانج أعادتها إلى مكانتها السابقة ، وأعلت من شأنها ولما جلس على العرش تاي دزونج الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكنفوشيوس في كل مدينة وقرية في جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأن يقرب له فيها القرابين العلماء والموظفون وفي عهد أسرة زونج نشأت مدرسة قوية

للكنفوشية الجديدة أضافت شروحاً وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكنفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر وما أضافته إليها من شروح مختلفة في بلاد الشرق الأقصى ، وبعثت في اليابان نهضة فلسفية قوية وظلت مبادئ كنفوشيوس من مبدأ قيام أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو- أي ما يقرب من ألفي عام- تسيطر على العقلية الصينية وتصوغها في قالبهاوالفلسفة الكنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين ؛ ذلك أن كفايات معلمها الأكبر ظلت جيلاً بعد جيل النصوص المقررة في مدارس الدولة الصينية ، يكاد كل صبي يتخرج في تلك المدارس أن يحفظها عن ظهر قلب ، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التي يمتاز بها الحكيم القديم في قلوب الصينيين ، وسرت في دمائهم ، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقاً في التفكير لا نظير لهما في غير تاريخهم أو في غير بلادهم ، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متآلفة ، وأن تبعث في نفوس أبنائها إعجاباً شديداً بالعلم والحكمة ، وأن تنشر في بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التي اجتاحت بلادها ، وأن تشكل هي الغزاة على صورتها وتطبعهم بطابعها ولسنا نجد في غير المسيحية والبوذية ما نجده في الكنفوشية من جهود جبارة لتحويل ما جبلت عليه الطبيعة البشرية من غلظة ووحشية إلى تأدب ورقّة ولسنا نجد في هذه الأيام- كما لم يجد الأقدمون في الأيام الخالية- دواء يوصف للذين يقاسون الأمرّين من جراء الاضطراب الناشئ من التربية التي تُعنى بالعقل وتهمل كل ما عداه ، ومن انحطاط مستوى القانون الأخلاقي وتدهوره ، ومن ضعف الأخلاق الفردية والقومية ، لسنا نجد دواء لهذا كله خيراً من تلقين الشباب مبادئ الفلسفة الكنفوشية لكن تلك الفلسفة لا تستطيع وحدها أن تكون غذاء كاملاً للروح لقد كانت فلسفة تصلح لأمة تكافح للخروج من غمرات الفوضى والضعف إلى النظام والقوة، ولكنها غل ثقيل يقيد البلد الذي ترغمه المنافسات الدولية على أن ينمو ويتطور ذلك أن قواعد الأدب واللياقة التي

شكلت أخلاق الصينيين ونظامهم الاجتماعي أضحت قوة جارفة تسير كل حركة حيوية في طريق مرسوم لا تتحول عنه ، وكانت الفلسفة الكنفوشية تصطبغ بصبغة جامدة متزمتة ، وتقف في سبيل الدوافع الطبيعية القوية المحركة للجنس البشري ، وسمت فضائلها حتى بلغت حد العقم ؛ ولم يكن فيها قط مجال للهو والمجازفة كما لم يكن فيها إلا القليل من الصداقة والحب ، وقد أعانت على تحقير النساء وإذلالهن ، كما أعان ما فيها من كمال بارد على تجميد الأمة الصينية وجعلها أمة متحفظة لا يضارع عداءها للرقي إلا حبها للسلام وليس من حقنا أن نعزو هذا كله إلى كنفوشيوس ، وأن نوجه إليه اللوم من أجله ، إذ ليس في مقدور إنسان أياً كان شأنه أن يسيطر على تفكير عشرين قرناً من الزمان بل كل ما يحق لنا أن نطلبه إلى المفكر أن يضيء لنا بطريقة ما ، وبفضل تفكيره طوال حياته ، سبيل الفهم الصحيح وقَلَّ أن تجد في العالم من اضطلع بهذا الواجب كما اضطلع به كنفوشيوس وإذا ما قرأنا تعاليمه، وتبينا ما يجب أن نمحوه من فلسفته بسبب تقدم المعارف في العالم وتبدل أحواله ، وعرفنا قيمة ما يسديه إلينا من هداية في عالمنا الحاضر نفسه ، إذا فعلنا هذا نسينا من فورنا ما يشوب فلسفته من تفاهة تارة ومن كمال لا تطيقه الطبيعة البشرية تارة أخرى ، واشتركنا مع كونج جي حفيده الصالح التقي في هذا التسبيح الأعلى الذي كان بداية تأليه كنفوشيوس لقد نقل جونج- في عقائد يُو وشوِن كأنهما كانا من آبائه ، ونشر نظم وُن و وُو واتخذهما مثلين يحتذيهما وينسج على منوالهما وكان في صفاته الروحية قديساً أو ملاكاً يتناغم مع السماء، ولكنه لم ينس قط أنه مخلوق من طين وماء وهو يشبه السماء والأرض في أنه كان عماداً لكل شيء وعائلاً لكل شيء، يحجب نوره كل شيء، وتغطي ظلاله كل شيء وهو أشبه بالفصول الأربعة في تتابعها وانتظام سيرها، وأشبه بالشمس والقمر في تتابع ضيائهما فهو في شموله واتساع آفاقه كالسماء ، وفي عمق تفكيره ونشاطه كالهوة السحيقة والعين الجائشة الفوارة إذا رآه الناس وقروه وعظموه ، وإذا تكلم صدقوه ، وإذا فعل أعجبوا بفعله وأحبوه

ولهذا ذاع صيته في المملكة الوسطى وانتشر بين القبائل الهمجية ، فحيثما وصلت السفائن والمركبات ، وحيثما نفذت قوة الإنسان ، وفي كل مكان امتد على سطح الأرض وأظلته السماء وأضاءته الشمس وأناره القمر ، وفي كل بقعة مسها الصقيع وطلها الندى- يجله ويحبه كل من سرى فيه دم الحياة وترددت في صدره أنفاسها ، حباً صادقاً لا تكلف فيه ولا رياء ، ولهذا قيل عنه إنه: هو والسماء صنوان

مؤلفاته- الكتب التسعة:

تنقسم المؤلفات التي تناولت فلسفة كونفوشيوس إلىقسمين: قسم يسمى :الكتب الخمسة الإنسانية القديمةأو الكلاسيكيات الخمس أ ما القسم الثاني فيسمى الكتب الأربعة أو كتب الفلاسفة فأ ما القسم الأول فهو مجموعة شروحه وتعليقاته على الكتب الخمسة القديمة التي كتبها بنفسه وتركها لتلاميذه وهي تعد ملخصا للثقافة لكونفوشيوسية، وتاريخا للفلسفة والسياسة والاجتماع والدين والتربية في العصور السابقة عليه كما أن تلاميذه قد أضافوا كذلك إلى هذه الكتب شروحهم وتعليقاتهم لى حد أن اختلطت آراؤهم بآراءأستاذهم ولكن يبقى لكونفوشيوس وتلاميذه الفضل الكبير عندما تولوا القيام بمهمة نقل هذه الكتب التي سبقت عصر ونفوشيوس من لغتها القديمة، غير المعروفة إلا لأقلية ضئيلة من مجتمع هذا العصر، إلى اللغة الصينية المفهومة التي كانت شائعة آنذاك

وتتألف الكتب الخمسة القديمة، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل، من كتاب الأغاني أو الأناشيد : الذي يشرح حقيقة الحياة البشرية، ويصف دوافعها، ويوضح مبادئ الأخلاق الفاضلة والثاني :كتاب التاريخ، وهو يشتمل على الوثائق التاريخية الخاصة بالإمبراطورية الصينية على اعتبار أنها تسجيل ملهم وماضي دولة لو البطولة والنظام والثالث :كتاب الطقوس، وهو جامع لقواعد السلوك الروحي والطبيعي التي لابد منها لتكوين الأخلاق، واستقرار النظام الاجتماعي والسلام والرابع :حوليات الربيع والخريف :وهو كتاب للتاريخ بمعنى الكلمة،

يتضمن تسجيلا موجزا لأهم ما وقع من أحداث في وطنه لو ، كما يظهرالواجبات التي نهض بها حكماء الصين فيما قبل التاريخ والخامس :كتاب التغيرات الذي أُلِف في الأصل للتنجيم ومعرفة الحوادث المستقبلة، ويعتبر من أفضل الكتب التي أهدتها الصين إلى ذلك الميدان الغامض ميدان علم ما بعد الطبيعة الميتافيزيقا وقد وجد فيه كونفوشيوس، خصوصا عند نهاية حياته العلمية، سر المعرفة الكاملة، هذا على الرغم من حرصه على ألا يلج باب الميتافيزيقا في فلسفته أما عن القسم الثاني، فيتكون من أربعة مؤلفات تدعى بالصينية سوشو، وهي مؤلفات لم يخطها قلم المعلم الكبير، وإنما دونها أتباعه وتلاميذه بوحي منه، وأضافوا إليها تعليقاتهم، وتعتبر في الواقع، المرجع الرئيسي للفلسفة الكونفوشيوسية وأشهر هذه المؤلفات الأربعة طرا هي كتاب أو الأحاديث لون – يو أي :المنتخبات ويحتوي هذا ، أو المحاورات أو شذرات الكتاب على عشرين فصلا تتضمن مجموعة آراء المعلم ومحادثاته مع تلاميذه، وملاحظات هؤلاء على آراء أستاذهم، وهو بهذا يقدم لنا، ومن هذه الناحية، ملخصا واضحا لفلسفة كونفوشيوس، حتى ذهب العلماء إلى تسميته باسم وقد ترجم إنجيل كونفوشيوس الكتاب من اللغة الصينية مباشرة إلى اللغة العربية ويوجد لهذا الكتاب ثلاث نسخ يختلف بعضها عن بعض اختلافًا بسيطا أما الكتاب التالي وهو كتاب الداشوه أو العلم فهو كتاب موجز يحتوي على العظيم دراسات لبعض الآراء والمشاكل الفكرية في صورة أمثلة وحكم، ومن المحتمل أن تكون أجزاء منها قد كتبها الحكيم بنفسه وترجع الأخلاق الكونفوشيوسية في كتاب العلم العظيم إلى أصولها المجردة، فيما يذهب إلى ذلك أحد الباحثين يقول الكتاب :للأشياء أصولها وفروعها، وللأمورنهايتها وبدايتها، وفي معرفة ما هو الأول وما هو الأخير سيقود المرء إلى الاقتراب مما يعلم في كتاب العلم العظيم ونحاط عل ما بعد ذلك كيف أن القدماء شرعوا في تنظيم ممالكهم وفقًا للفضيلة ولتحقيق راحة الجماهير اكتشفوا أن من واجبهم أولا، أن يكونوا قدوة صالحة في حياتهم الأسرية، وقد أدى هذا بهم، بدوره، إلى أنوع من

البحث والاستقصاء في نفوسهم الذاتية، بالغين الذروة، في إدراك أنهم يجب أن يتوسعوا حتى يصلوا إلى أقصى درجة لديهم من المعرفة حتى تتغلغل في قلب الواقع أو طبيعة الأشياء بمعنى آخر، الحكم الصالح لا يمكن بلوغه فقط عن طريق فرض تعليمات خارجية بل على العكس من ذلك يمكن بلوغه فقط عن طريق كل فرد، الحاكم فضلا عن المحكوم، مشتركين في التهذيب الذاتي طبقًا للقانون الطبيعي للحياة، أي قانون الواجب أو طريق الواجب كما يسميه كونفوشيوس إن طريق الواجب ، فيما يرى ذلك كونفوشيوس،يلزم الإنسان الأسمى أن يتصرف لكي يجعل سلوكه في كل الأجيال قانوًنا عالميا ونفس هذا المعنى سوف يتردد، بعد لك في العصر الحديث، على لسان الفيلسوف الألماني كانط حيث يقول :إننا يجب أن نعمل حتى يصير المثل الأعلى لسلوكنا قانوًنا عالميا أو قانوًنا عا ما للطبيعة أما الكتاب الثالث فهو تشونج– يونج أو عقيدة الوسط، ويبدو أن الذي وضعه حفيد كونفوشيوس ويعتبر هذا ، هو كونج تشي الكتاب من المؤلفات التي تحوي مذهبه، ويشتمل على مجموعة كبيرة من الآراء الأساسية في أخلاق كونفوشيوس وأما الكتاب الرابع والأخير، فهو كتاب منشيوس الذي يعد من أعظم تلاميذ ، كونفوشيوس ويتكون هذا الكتاب من سبعة كتب، ويعد خاتمة الآداب الصينية القديمةوقد ظلت هذه الكتب الأربعة أعمدة التثقيف الصيني حتى إلغاء اختبارات الالتحاق بالوظائف العليا في البلاد عام وعلى الرغم من أن مؤلفات كونفوشيوس التسعة تحتوي في الجزء الأكبر منها على مجموعة من الأمثال والحكم المفصولة الواحدة منها عن الأخرى بحيث يتعذر علينا أن نعثر فيها على مذهب فلسفي متماسك الأجزاء، كما هو الحال في الفلسفة الأفلاطونية أو الأرسطية أو الكانتية أو الهيجلية التي تتميز بوجود نسق فلسفي شامل للكون والحياة والإنسان، إلا أن هذه الأمثلة السائرة والحكم غير المترابطة كافية مع ذلك لمعرفة اتجاه كونفوشيوس وتلاميذه بصدد الموضوعات العامة التي يتناولها أي مذهب فلسفي ولاشك أن تلاميذ كونفوشيوس ومريديه كان

لهم فضل كبير في المحافظة على فلسفته ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، وذلك على غرار ما فعل تلاميذ سقراط، وفي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو، بفكر أستاذهم الذي لم يترك شيئًا مكتوبا، وعلى ذلك كانت مؤلفاتهم عنه المصدر الوحيد لمعرفة فلسفته التي نجحوا في الحفاظ عليها ونقلها إلى الأجيال اللاحقة وإذا كان أرسطو قد عرف، في تاريخ الفكر البشري، بأنه المعلم الأول، فإن كونفوشيوس، قد عرف بين أتباعه ومريديه ومريدي مريديه بأنه معلم الجنس البشري، بل أعظم معلم له أنجبته القرون، وعرفته البشرية

الوسط الذهبي

الوسط والانسجام، عند كونفوشيوس، هما نقطة الذروة في الطبيعة الإنسانية، إذ إن هذه الطبيعة تتألف من قسمين :النفس أو الذات أو المركز، والأحاسيس أو المشاعر والانفعالات فعندما لا تتنبه الأحاسيس أو الانفعالات مثل الغضب أو الحزن أو الفرح تدعى الوسط أو الاعتدال،وعندما تتنبه هذه الأحاسيس أو الانفعالات دون أن تتجاوز الحد المعتدل يقال عن النفس أو الذات إنها في حالة الانسجام، وبعبارة أخرى، إن الأحاسيس عندما تتجسد في الخارج، وهي تعثر على الإيقاع الصحيح، تسمى انسجاما فإذن الوسط أو الاعتدال هو الأصل، والانسجام هو القانون العام فحالة المركزية أو النفس أو الذات هي المنشأ الأعظم، وحالة الانسجام هي السبيل الحسن البعيد المدى، لكل ما هو موجود في العالم وحينما يلحق الوسط أو الاعتدال والانسجام غايتهما، ويتحققان، يسود الاستقرار الكامل في السماء وعلى الأرض، وتتلقى جميع الأشياء حقها كاملا، وتتقدم نحو الكمال، بما يفيد أن المجال الأخلاقي والمجال الميتافيزيقي لا ينفصلان، بل النظام الخلقي والنظام الكوني يشكلان وحدة أو كيانًا واحدا لقد وقف كونفوشيوس موقِّفا وسطا بين الإفراط والتفريط، ولجأ إلى الحد الأوسط لتحديد الفضائل الخلقية وبعبارة أخرى فإن الفضيلة عنده هي اختيار الوسط بين رذيلتين متضادتين مثال ذلك :عندما يمسك إنسان ما بطرفي قضية، ويتصرف حيال الناس تبعا للوسط

الصحيح ومعنى هذا أن الإنسان يصبح فاضلا، إذا ما وقف موقّفا وسطا بين ذاته المركزية وانفعالاته، ووفق بينهما حسب الظروف، فلا يحاول أن يعلومستوى القانون الأخلاقي عن طريق التزمت أو التطرف، أو يتدنى في تصرفه الأخلاقي إلى مستوى أقل بكثير من مستوى القانون الخلقي، بل يعمل مثل هذا الرجل على تحديد القانون الأخلاقي بالضبط ويتصرف طبّقا لها، دون إفراط أو تفريط، وبهذا يوصف سلوكه بأنه سلوك أخلاقي صحيح ومن هنا جاز لنا أن نقارن نظرية الوسط الذهبي الكونفوشية بمذهب الوسط الذهبي الأرسطية ومؤداه أن كل فضيلة هي وسط بين رذيلتين، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين التبذير والبخل، والصداقة وسط بين التملق والشراسة، والتواضع وسط بينالخجل وانعدام الحياء ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى :إنني أعرف الآن لماذا لا يفهم كثير من الناس القانون الأخلاقي فالأفراد ذوو الطباع السامية يعيشون في مستوى أخلاقي يعلو القانون الأخلاقي أي أعلى من ذاتهم الأخلاقية العادية والأفراد ذوو الأخلاق المنحطة يعيشون في مستوى يقل عن المستوى العادي للقانون الأخلاقي ويقول أيضا :لعل الاقتصاد الدائم هو المثل الأعلى للفضائل لا تفسد الآخرين بفرط حبك، ولا تقضِ عليهم بفرط كراهيتك، وخير الأمور هو الوسط بين الطرفين : الإنسان النبيل الأعلى أو الماجد تشن– تزو تتجسد الأخلاق الوسطية، عند كونفوشيوس، في الإنسان النبيل، أو الماجد تشن – تزو ، الذي يضع رفاهية البشر نصب عينيه، ويتميز بالفكر المستنير والنظر الثاقب، وتعلو مصلحة الدولة عنده على أية مصلحة أخرى، حتى لو كانت مصلحته الشخصية وتتطابق لدى هذا الإنسان نبالة الحسب مع نبالة السلوك الحكيم، وحياته بهذا تعد خير مثال لمذهب الوسط، ويناقضها تناقضا متميزا حياة الإنسان اللئيم أو الإنسان الحقير : سياو - جن الذي يتطرف في سلوكه وأفعاله دون وازع من ضمير أو خلق سامٍ والنبيل يصبح نبيلا بتربية نفسه إيمانًا منه بأن الرقي الذاتي هو أساس الرقي الاجتماعي كما سيقول بذلك فيما بعد الفليسوف الألماني جوته وفي

بحث النبيل عن الحقيقة يختار الخير، ويتعلق به جهده، ومن هنا فإنه يرفض أن يكون قديسا أو ناسكا معتزلا للمجتمع، إذا يصده ضميره عن إتيان هذا الفعل الشاذ إن هذا الإنسان المهذب الخير الجين يحرص دائما على قواعد اللياقة لي ، ويبحث دائ ما عن الطريق تاو ، ويعمل وفًقا لعلاماته ولما كان الناس، عنده اجتماعيين بفطرتهم، صالحين بطبيعتهم، فقد وطَّد الإنسان النبيل أو الأعظم نفسه على أن يكون عضوا نافعا في نطاقه، وأخذ على عاتقه عبء هداية المجتمع إلى الطريق الصواب المستقيم والرجل النبيل، في نظر كونفوشيوس، ذكي، شجاع، محبا للخير، طالب علم ومعرفة، واسع الفكر، هادئ صافٍ، محب للناس جميعا ومعاون لهم على فعل الخير، موضوعي في حكمه على أفعال الآخرين بلا تحيز أو ظلم، دائم المحاسبة لنفسه على كل ما يأتيه من أفعال كبيرة كانت أم صغيرة، ثابت على الحق، عادل وغير حقود، فعال لا قوال وهو متفوق في أفعاله ومعتدل في هذه الأقوال والأفعال، يحترم مشيئة السماء دون ضجر أو تبرم، حكيم، خلو من القلق والحيرة والتشوش، وهو مجامل لطيف بشوش لجميع الناس، حازم وقوي العزيمة ونفصل حديثنا عن سمات الرجل النبيل أو الماجد ومنهجه في التفكير والسلوك كما وردت في كتاب المنتخبات أو الحوار، وكتاب الطقوس، مع مقارنتنا لصفات النبيل بصفات اللئيم أو الإنسان الأدنى المنحط وطريقته في التفكير وحركاته، لتكتمل لنا بذلك أفضل صورة للرجل النبيل، الذي تجتمع فيه الحكمة والقداسة :النبيل هادئ صافٍ، قلبه خلو من الخوف والقلق، أما اللئيم فهو دائما قلق وفي همٍ وكرب النبيل يدرك ما هو حق وصواب، ولا يفهم اللئيم إلا ما هو مربح ونافع النبيل يحترم آراء الآخرين ويقدرها، ولا يعتنق منها إلا ما يتفق مع مذهبه، بينما اللئيم يظاهر كل الناس، ويتآخى معهم دون أن يتفق مع أي إنسان الأول يراعي الفضيلة ويعشق الروحانيات، والثاني يراعي الحيازة والاقتناء ويعبد الماديات على وجه الإجمال النبيل يفكر في الصداقة النزيهة ويسعى إليها،واللئيم يهدف من وراء اتصالاته بالآخرين إلى الحصول على المنفعة والربح لا يبحث

النبيل إلا عما هو موجود في نفسه، أما الرجل اللئيم فيبحث عما في الآخرين مستجديا إياهم الأول يحترم ذاته وهو ممتلئ كرامة دون خيلاء، بينما الثاني متكبر مغرور، وهو وضيع محتقر وتعوزه الكرامة النبيل واسع الأفق، رحب التفكير ولا يعرف التعصب فليس بوجه الإطلاق مع، ولا بوجه الإطلاق ضد أي شيء من الأشياء في العالم ، فهو ليس بالمتشبع بل يكتفي بالموافقة على الخير، بينما اللئيم عكس ذلك تما ما، فهو متعصب مغرور ضيق الأفق، يتحزب في سبيل منفعته، ويسعى إلى التفرد بالكلمة الأخيرة يجتهد النبيل في معاونة الآخرين على إتيان الأعمال الخيرة، بينما يسعى اللئيم إلى مساعدة الآخرين على ارتكاب الشر لا يحقد النبيل على أحد، ولا يغضبه أن يسمو غيره من الناس، فإذا رأى أفاضل الناس وأكملهم خلًقا فكر في أن يكون مثلهم، وإذا رأى سفلة الناس ابتعد عنهم وقفل إلى نفسه يتعمق حقيقة أمره وهذا عكس ما يفعله اللئيم الأول يطلب العلا، والثاني ينجذب إلى الأسفل النبيل حازم صريح في إعلان خصومته للآخرين، بينما الخصومة تخنق اللئيم ولا يقدر عليها خاصة إذا كانت في الحق والرجل النبيل متواضع دائما، ويفرض على نفسه أن يكون عادلا، وهو لا يحقد على أحد، ويرضى بماقدر له دون تذمر من السماء ولا من الناس إنه يثريث في أقواله ويسرع في أعماله التي يهمه أن تكون متطابقة مع أقواله ويخشى كل الخشية ألا تحقق فعاله وعدا قطعه بلسانه وهو يتجنب الدخول في أي مناقشة أو جدال، وحتى في المناقشة يعرف كيف يبقى نبيلا لا يحزن ولا يخاف النبيل يداوم على محاسبة نفسه على كل كبيرة وصغيرة، وإخضاع أعماله وأفكاره للنقد والاختيار لمعرفة مدى صدقها أما اللئيم فلا يحاسب نفسه، ولا يلزمها بأي إلزام، ولكن يتظاهر بالفضيلة أمام الناس، الذين سرعان ما يكشفون عن هذا التظاهر الخادع، إذ إن الخديعة لا تدوم وفي ذلك يقول كتاب الأغاني: مهما بلغ غوص السمكة في داخل الماء فإنها لا شك تكشف بوضوح وطابع الإنسان النبيل هو شعور المحبة والأخوة حو الآخرين، والعطف عليهم، ويرى أن انعدام المحبة من شأنه أن يباعد

بين الإنسان وبين الاستمتاع بالحياة الرغدة الهنية، ويزيد من شعوره قسوة الحياة وظلمها ويشيع في أقوال النبيل مبدأ الولاء وتبادل المعاملة الذي جب على الإنسان أن يتخذه قاعدة يسير عليها طوال حياته ويقضي هذا المبدأ بأن لا تعامل الناس بما لا ترضى أن تعامل به وهذا هو منطوق القاعدة الذهبية التي بشَّر بها السيد المسيح عليه السلام بعد كونفوشيوس بنحو خمسة قرون، وهي: ألا تعامل الناس إلا بما تحب أن يعاملوك به، وأن تحب جارك كما تحب نفسك ولكن العدالة أو تبادل المعاملة لا تعني عند كونفوشيوس مقابلة الشر بالخير، أو مجازاة الإساءة بالإحسان، بل تقتضي مجازاة الإساءة بالعدل والإحسان بالإحسان وتشتمل العدالة التي يرعاها الرجل النبيل على أربعة مبادئ هي :الطبيعة السمحة النية الطيبة ، والفعل الحسن، والعلم الغزير، والعزيمة القوية وإذا كان الرجل النبيل عادلا لا ينحاز، فإن اللئيم الناقص منحاز لا يعدل ويرى كونفوشيوس أن المحبة والكراهية يجب أن تقدر تقديرا عادلا يلتزم به الإنسان في سلوكه نحو الآخرين مع مراعاة الكرامة الشخصية وحقوق الأعداء، وفي ذلك يقول :إنما ذو المروءة من يقدر على حب الناس بالحق،وعلى كراهة الناس بالحق يقول أيضا :أحبوا أصدقاءكم ولكن أدبوا أعداءكم ولا تكرهوا أولئك الأعداء، فالكراهية لا تولِّد إلا كراهية ومن الناحية الأخرى لا تردوا الكراهية بالمحبة، لأن محبتكم هذه سوف تفسر خطأً وتعتبرضعفًا من جانبكم، بل وتشجع أعداءكم على زيادة درجة كراهيتهم لكم وإنه لمن الوحشية أن تثأروا إذا ما أصابكم أذى، ولكن من الحماقة، أيضا، أن تغفلوا الأذى وتصفحوا فلتقدروا المسألة تقديرا عادلا ثم يكون سلوككم طبقًا لهذا التقدير، على أن تراعوا كرامتكم الشخصية وحقوق أعدائكم لقد تميزت الأخلاق عنده بالواقعية، ومن هنا فإنه لا يوافق على هذا النوع من المحبة السامية، وعلى مبدأ تحويل الخد الآخر، بل رأى أن العدالة، وتبادل المثل بالمثل، ما هما في الحقيقة إلا شيء واحد، وأن علينا أن ننظر إلى الآخرين، ليس كما نريدهم أن يكونوا، وإنما كما هم كائنون فعلا، ومن المسلم به أن المحبة يمكن أن تتغلب على الكراهية،

كما يمكن أن تتغلب المياه على النار ولكن يجب ألا يفوتنا أن النار القوية المتأججة يمكن أن تجفف بركة من الماء ، إن مخزون المحبة المتناهي في الصغر والذي يحتل مكانه داخل القلب البشري ليس من القوة بالدرجة التي تمكنه من أن يفيض على القوة المعتدية، ويطفئ لهيب كراهيتها والرجل النبيل هو الذي تتساوى فيه الصفات الطبيعية الأصيلة صفات الجسم ، والصفات المكتسبة الثقافة والتهذيب وتمتزج بعضها بالبعض الآخروذلك أن الصفات الطبيعية إذا غلبت فيه على الصفات المكتسبة، كان جلًفا أو فلا حا من فلاحي الأرياف غير المتحضرين، أما إذا غلبت فيه الصفات المكتسبة على الصفات الطبيعية الأصيلة، تحوَل إلى مجرد إنسان يتحكم فيه الروتين أو إنسان يمثل أخلاق الكتبة أما إذا اقترنت فيه الصفات الطبيعية الأصيلة بالصفات المكتسبة، وامتزجت هذه بتلك، كان لنا منه الرجل كامل الخلق ويحسن الرجل النبيل التصرف في كل موقف يجد نفسه في غماره، إنه لا يخشى الضياع في أي وضع، لا في الثروة، ولا في الشرف، ولا في الفقر، ولا في الضعة الحطة ، ولا بين المتوحشين، ولا في الألم، ولا في الصعاب، فإذا كان ثريا يتصرف تصرف الأثرياء، وإن كان فقيرا متض عا، يسلك سلوك الفقراء المتضعين وإن وجد بين المتوحشين المتبربرين، يفعل فعلهم فإن أحدقت به المتاعب، جهد في تلافيها وبالأحرى، يقف صامدا في جميع الظروف والملابسات لكنه لا يستغل مركزه، ولا يسعى للإفادة من الآخرين والإخلاص هو قوام أخلاق الرجل النبيل، وكمال وجوده الذاتي، وينعدم الوجود بانعدام الإخلاص الذي يعد بداية الأشياء ونهايتها ومن هنا اعتبر الرجل النبيل الإخلاص أعظم جميع المعارف المكتسبة قيمة، وكل الأشياء الناتجة عن الإخلاص مبرأة من الخطأ ويرى كونفوشيوس أن السبيل إلى اكتساب فضائل الرجل النبيل هو التعليم، وطريقه طريق شاق؛إذ يتطلب أن يتعلم المرء كل يوم ما ينقصه، فعن طريقه يتعلم القانون الأخلاقي والشعائر والآداب والموسيقى والكتابة والحساب، وهو بهذا يرفض المعرفة العفوية إن التعليم بهذا ضروري لاكتساب الفضائل وتشكيل

السلوك الإنساني القابل للتعديل باستمرار، وهو بهذا ليس بالشيء الثابت وقد كان لآرائه في التعليم والتربية دور كبير في شيوع عقيدة التفاؤل القائلة بقابلية الطبيعة البشرية لبلوغ الكمال عن طريق مداومة التعلم واكتساب الفضائل: كونفوشيوس : مذهب الوسط فكما أن قطعة من الخشب لا يستطاع تشكيلها لكي تصيرقطعة فنية بدون أن تقطع أو تنشر، كذلك الإنسان لا يستطيع الوصول إلى القانون الأخلاقي بدون التعليم، ولذلك كان الملوك القدامى يتجهون نحو التعليم باعتباره أول العوامل الرئيسية في مجهوداتهم لإقامة نظام في دولتهم ويقول كونفوشيوس في ذلك: اطلب العلم بالتوسع، ولتكن همتك صادقة، واستفسر عما يعنيك، وفكر فيما يقربك ، من يعلم كل يوم ما لم يعلمه من قبل، ولا ينسى كل شهر ما قد علمه، فهو جدير بأن يعتبر مولعا بالعلم ويهتم كونفوشيوس بأن يكون الطريق الموصل إلى العلم والمعرفة هو طريق التجربة الحسية المتمثلة عنده في الإكثار من المشاهدات والمسموعات ومصدرا هاما لهذه المعرفة اليقينية وفي ذلك يقول :أكثر من المسموعات، ودع منها ما فيه الشك، واحترس إذا تحدثت عن البواقي تقل لو الناس عليك وأكثر من المشاهدات، ودع منها ما فيه الخطر واحترس إذا عملت بالبواقي تقل ندامتك ولاشك في أن تعاليم كونفوشيوس قد تركت أثرها الكبير في نفوس الشعب الصيني من حيث إجلاله للعلماء والمفكرين وتوقيرهم واتخاذهم أبطالا مفضلين بما لا نجد له مثيلا في أي مجتمع آخر ويجمل صفات الرجل النبيل أو الماجد في تسعةصفات :فأ ما من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح، وأ ما من حيث أذناه فهو يكون بشو شا ظريًفا، وأ ما من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقو را، وفي حديثه يحرص على أن يكون مخل صا، وفي تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته وأن يبعث الاحترام يمن معه، وفي الأمور التي يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس، وإذا غضب فكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب، وإذا لاحت له المكاسب فكر في العدالة والاستقامة والمدقق في صفات الرجل النبيل عند

كونفوشيوس،يجد أنها تتشابه إلى حد كبير مع صفات الرجل الكامل عند أرسطو، الذي يتمتع بمكانة فريدة قلَّ أن يبلغها إلا الملوك وأبناء النبلاء إذ يتصف الرجل الكامل أو المثالي عند أرسطو بالكبرياء والاعتزاز بالنفس، ويهتم بمساعدة الآخرين على الأعمال النافعة، ولا يلتمس عندهم عوَّنا، بل يحرص على تقديم المنافع للآخرين، ويخجل أن يتلقاها منهم،وهو صادق في غير التواء، صريح في إظهار مشاعره الحقيقية نحو الآخرين من حب أو كراهية، يتكبر على أهل الكبر وأصحاب المكانة المرموقة، ولا يحقر من هم أقل منه من أهل الطبقة المتوسطة بل هو دائم التواضع لهم كما يمكننا أيضا، أن نقارن كونفوشيوس بالفليسوف ، إذ إن الرجل :– الألماني كانط النبيل عند كونفوشيوس يجب عليه أن يسير وفق قاعدة، وهذه القاعدة يجب ألا تكون خاصة، بل يشترط أن تكون عامة فهو يتحرك بحيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريَّقا عا ما، ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانونا عا ما، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ ونحن نلمح هنا قانون الأخلاق الكانتي المطلق قبل وجوده بأكثر من أربعة وعشرين قرًنا وهو القائل :افعل طبًقا لقاعدة تستطيع في نفس الوقت أن تريد جعلها قانوًنا عا ما وهذا القانون عند كانط، كما هو الحال عند كونفوشيوس، يستجيب له كل مخلوق عاقل مستهدًفا طاعته في ذاته باعتباره قانوًنا لا لأي سبب آخر وإذا كنا قد لحظنا وجود تقارب بين كونفوشيوس من ناحية، وأرسطو وكانط من ناحية أخرى، فإننا في المقابل، سنلحظ اختلاًفا واضحا بين الرجل النبيل عند كونفوشيوس، والرجل الأعلى السوبرمان عند الفيلسوف الألماني ، إذ تحدث كونفوشيوس عن نيتشه :الرجل النبيل قبل أن يجيء نيتشه بنظرية الإنسان الأعلى بما مذهب الوسط يقرب من خمسة وعشرين قرًنا ولكن الاختلاف واضح، والتباين ظاهر بين الاثنين فرجل كونفوشيوس النبيل كان يرى أن في استطاعة الآخرين كافة أن يصبحوا نظراء ن طريق التعليم والتربية أما إنسان نيتشه الأعلى السوبر مان فكان يتعالى على الآخرين كافة ويحتقرهم، ويعاملهم على أنهم مرءوسين

وفي خدمته وإذا كان الرجل النبيل، عند كونفوشيوس، يتميز بالهدوء والصفاء والرقة والرحمة والشفقة والمجاملة والبشاشة والتواضع وحب الآخرين ومعاونتهم على إتيان الأعمال النافعة، وبذل العون لهم للعزوف عن ارتكاب الشر، فإن من صفات الرجل الأعلى عند نيتشه، القسوة وكراهية الشفقة والاشمئزاز من منظرها كأنها جيفة، معتبرا إياها فضيلة المومس ،إذ القسوة عنده هي مبدأ الحياة الأول، وهي تربي الإنسان على الإقدام على أشد المخاطر كما يمتاز إنسان نيتشه الأعلى بالحيوية والنضال الدائم من أجل السيطرة والغزو والظفر، الذي لا يمكن أن يتحقق بدون حرب عدوانية، فهذا السوبر مان، بطبعه، يبغض السلام، ويقدس الحرب وأخيرا فإن هذا الرجل الأعلى عند نيتشه، يحارب القيم الأخلاقية والاجتماعية المتمثلة في المساواة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، ويرى أن القوة هي أساس نشأة المجتمعات البشرية، وأن الغزاة والسادة الأقوياء هم الذين أنشأوا الدول عن نيتشه يفضل، بصفة عامة، الشر على الخير، خلافًا لكونفوشيوس، الذي يؤثر دائما، الخير على الشر، ويدعو إلى كفالة الخير والسعادة لجميع أفراد الجنس البشري لقد حاول كونفوشيوس أن يجعل من شعبه غالبية من النبلاء الأماجد الكرام المجاملين، لا أقلية مغترة من المتعالين المتعصبين، وهذا ما سيرفضه نيتشه على طول الخط إيمانًا منه بأن الإنسان الأعلى ما هو إلا نتاج التطور البيولوجي، وأن غالبية الشعب يجب أن تتحول إلى وسائل خدام وأدوات للعظماء، فعذاب الكثرة عنده هو ضرورة لانتصار الصفوة الممتازة وقد سبق أن علمنا أن كونفوشيوس لا يشترط في النبيل أن يكون منحدرا من أسرة نبيلة ورث عنها النبل، بل أن النبيل هو من اجتهد في تكميل ذاته علميا وأخلاقيا، وراعى قواعد اللياقة لي ، وعمل طبقًا لعلامات الطريق تاو ، حتى ولو كان من الطبقات الدنيا

طاعة الابناء

طاعة الأبناء للآباء إحدى أهم تعاليم كونفوشيوس باللغة الصينية ويعني الولاء البنوي هسياو الولاء للآباء الموتى والأسلاف وتقديم الطعام والقرابين إليهم، أما بالنسبة لكونفوشيوس، فقد أصبح الولاء البنوي يعني خدمة الوالدين، والبر بهما أثناء حياتهما إن أساس الفضيلة في نظره، هو الطاعة أو التقوى البنوية، لأن الفرد لن يمكنه احترام قانون المجتمع، وأداء واجباته حيال الحاكم والمجتمع، إلا بعد إدراكه كيفية احترام والديه وخدمتهما طائعا مبجلا فالأسرة هي الوحدة الطبيعية، والمكان الأول للتجربة الأخلاقية؛ إذ فيها تصبح الفضيلة ثابتة، ويصبح الواجب حقيقة، ومن هنا نبه كونفوشيوس مريديه وأتباعه لمزاولة طاعة الوالدين داخل الأسرة، بما يؤكد أهميتها بوصفها الخلية الأولى، والصورة الصغيرة للمجتمع فلنعمل، إذن، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، على تنظيم شئون الأسرة باتباع قواعد الفضيلة، وعلى رأسها فضيلة طاعة الابن، والإخلاص والقدوة الصالحة، ينصلح حال المجتمع بأسره ويتهيأ للبلاد نظام اجتماعي، سليم، يتيسر معه قيام حكم صالح، ويسود العالم بأجمعه الانسجام والوئام، ويسعد جميع من فيه وفي ذلك يقول كونفوشيوس: عامل أفراد أسرتك معاملة فاضلة، تستطيع بعد ذلك أن تعلم وتقود أمة بأكلمها من بر والديه، أحب إخوته، وتمكن من السياسة وتتمثل الطاعة البنوية في حب الوالدين وخدمتهما والعناية بهما في حياتهما، وتهيئة قبر مناسب لهما، ودفنهما دفًنا لائًقا بهما عند موتهما، ثم تقديم القرابين لهما ولا يعني البر بالوالدين مجرد تقديم الطعام لهما، فإن الحيوانات تجدل لها طعا ما، فعلى الأبناء فريضة إجلال الوالدين وتوقيرهما كونفوشيوس:وعلى الابن تأنيب والده بلطف، إن أصر على التمسك برأيه الخاطئ، ولكن في حزم فالاعتراض على الوالدين مسموح، إذا ما بدا أنهما مخطئان، ولكن دون تجاوز الاحترام العميق لهما وعلى الابن أن يبقى خاضعا لمشيئة والديه في جميع الأحوال ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى: وجب على الولد المبرة بوالديه إذا كان داخل المنزل، واحترام للمتقدمين في السن إذا كان خارجه، وأن يكون منتبها صادًقا مشفًقا على عامة

الناس إذا كان الوالدان في قيد الحياة خدمها بالأدب، وإذا توفيا دفنهما بالأدب، وقدم القرابين إليهما بالأدب من خدم والديه، فلينصح لهما بالبشاشة والرفق، فإن رأى منهما عزيمة على الإعراض عن نصحه، فليزدد احتراما لهما وغير متنازل عن تقديم النصح لهما، وغير متذمر منهما، ولو نالته المتاعب في سبيل نصحه لهما من كان والده على قيد الحياة فلا يسافر إلى الآفاق القاصية، فإن سافر مضط را، فليكن لسفره جهة معينة ويهدف الزواج، عند الكونفوشية، إلى إيجاد ذات جديدة تعمل على تخليد الذات القديمة إلى مدى عشرة آلاف جيل ، وتتصف الذرية بالتقوى والورع إن استطاعت تحقيق هذا الهدف ويمكن تخليد ذكرى الأسلاف عن طريق تقدير الابن لبدنه الذي ورثه عن والديه، ورعايته له وحمايته من أي أذى كما يتطلب هذا التخليد أن يعمل الابن جاهدا على إنجاب أحفاد يحفظون شجرة العائلة، إلى جانب الاستجابة لرغبات الآباء أثناء حياتهم، وعلى الابن أن يمتنع عن ارتكاب الأفعال المشينة؛ حرصا منه على عدم تلويث سمعة عائلته

الصداقة

يتحدث كونفوشيوس عن الصداقة باعتبارها نو عا من أرقى أنواع العلاقات الشخصية التي تنقل الفرد إلى عالم إنساني صرف يشعر فيه بأنه لا يكون إنسانا إلا بالآخرين ومع الآخرين إنها أشبه ما تكون بضرب من الإشعاع الذي يغمر بنوره شتى الذوات الإنسانية ويكره في الصداقة الزيف والخداع والنفاق والإفراط في المجاملة، والتظاهر بالمودة بهدف ستر المرء كراهيته للآخرين وأساس الصداقة الوفاء الذي يوجب على المرء استخدام كل إمكانياته للحفاظ على بقاء الصديق على الصراط السوي وتجيز الصداقة تبادل الانتقاد الصادق بين الأصدقاء الأوفياء وعلى الإنسان أن يحرص على مصادقة الأخيار، والابتعاد عن الأشرار، وأن يكون نصحه لصديقه بإخلاص

ورقة :انصح صديقك بالإخلاص وأرشده بالبراعة، فإن وجدته لا يقبل منك نصيحة فاسكت عن نصحه ولا تعرض نفسك للإهانة ويقسم الصداقة النافعة إلى ثلاثة أنواع :صداقة الصريح، وصداقة الوفي، وصداقة المثقف واسع الاطلاع، وعكس هذا تكون الصداقة الضارة ويرى كونفوشيوس أن الأخلاق، لا القوانين الإجبارية أو العقاب، هي الأساس السليم لعلاقات الإنسانية بين أفرد المجتمع ، فعلى الآباء والدولة واجب غرس الأخلاق الفاضلة؛ لأن الأخلاق إذا فسدت فسد الأفراد والمجتمع في وقت واحد ويجمل فضائل الأخلاق التي نستطيع اتخاذها أسا سا لهذه العلاقات في عشر قواعد، تشبه إلى حد كبير بوصايا سيدنا موسى العشر وهي: أن يعطف الولد على أولاده، ويحترم الابن أباه،ويعامل الأخ الأكبر أخاه الأصغر بلين ورفق، وأن يخضع الأخ الأصغر لأخيه الأكبر ويحترمه، وأن يتحلى الزوج بحسن الخلق ويعامل زوجته باحترام ورقة، وأن تطيع الزوجة زوجها، وأن يحسن الكبار معاملة الصغار، وأن يطيع الصغار أوامر الكبار، وأن يحسن الحاكم معاملة رعاياه الصغار ويعطف عليهم، وأن يخلص الوزراء في أداء مهمتهم

تأثيره ومذهبه الإنساني

حققت أفكار كونفوشيوس وتعاليمه، بعد موته عام ٤٧٩ قبل الميلاد، نجاحا كبيرا فاق كل التوقعات المتواضعة التي كان يتوقعها مؤسسها، واستطاعت هذه الأفكار والتعاليم أن تسيطر على الشعب الصيني وتشكل فكره الأخلاقي والديني والسياسي والتربوي أكثر من خمسة وعشرين قرَنا، منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى العصور الحديثة والمعاصرة ذلك أن كفايات معلمها الأكبر ظلت جيلا بعد جيل النصوص المقررة في مدارس الدولة الصينية يكاد كل صبي يتخرج في تلك المدارس أن يحفظها عن ظهر قلب، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التي يمتاز بها الحكيم القديم في قلوب الصينيين، وسرت في دمائهم، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمًقا في التفكير لا نظير لهما في غير تاريخهم أو غير بلادهم،

واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متألقة، وأن تبعث في نفوس أبنائها إعجابا ديدا بالعلم والحكمة، وأن تنشر في بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التي اجتاحت بلادها، وأن تشكل هي الغزاة على صورتها وتطبعهم بطابعها يضاف إلى ما سبق، أن الكونفوشيوسية نجحت نجاحا كبيرا في تحويل ما جبلت عليه الطبيعة الإنسانية من لظة ووحشية إلى تأدب ورقة لقد كان لكونفوشيوس دور بالغ الأهمية والفعالية في خلق المدنية الصينية، إذ أعلى من شأن القيم الأخلاقية والفكرية، وأظهر بغضه للخواء الفكري والبهتان، وربط الاستقامة بالمعرفة، وأقام قواعد الأسرة على الأسس الفلسفية الواضحة وهو الذي أنشأ نظام الحكم الكامل الذي يحقق للبشرية السعادة والرفاهية وليس هذا فحسب بل هو الذي حول التاريخ إلى علم راقٍ يرقى إلى مصاف العلوم الأخرى عند الأمم المتحضرة، ومن هنا كان تميز العقلية الصينية بأنها عقلية تاريخية قل أن نجد لها نظيرا عند الشعوب الأخرى كما يُعَدُ كونفوشيوس أول من مهد الطريق للتفكير المنطقي السليم للذين أتوا بعده، ممن كان لهم دور كبير في تحويل المنطق إلى علم جدير بالاحترام والتقدير من خلال دراساتهم المتعمقة إن الكونفوشيوسية تمثل، بحق، جوهر الثقافة الصينية واستطاع تراثها الروحي والفكري أن يهيمن على أذهان الشعب الصيني، منذ أن أقر الجميع بقوة هذا التراث إبان القرن الثاني الميلادي حتى زماننا المعاصر، كما استطاع هذا التراث أن يصمد أمام مختلف التيارات الفكرية الأخرى، لاسيما التاوية والبوذية، التي لم تستطع أن تسيطر على العقلية الصينية وكان تأثيرها عليها وقتيا ولم يقتصر تأثير فكر كونفوشيوس الطاغي على الصين وحدها، بل شمل الهند الصينية واليابان وكوريا، وامتد هذا التأثير حتى وصل إلى أوربا الغربية نفسها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث لعبت حكمة كونفوشيوس دورا في القضاء على التعصب الديني والحروب الناجمة عنه التي أجهدت الأوربيين، كما أدت هذه

الحكمة إلى تطوير مفاهيم المساواة الإنسانية والديمقراطية السياسية في الغرب، الذي كان يبحث دائ ما عن الثقافة الإنسانية المتوازنة والفكر الكونفوشي فكر إنساني بمعنى الكلمة، إذ يعد كونفوشيوس من أوائل المفكرين الإنسانيين الذين أعرضوا عن الاهتمام بالمشكلات الميتافزيقية خاصة ما يتعلق بالسماء والآلهة والكائنات غير المنظورة، واتخذ عوضا عن ذلك الإنسان وأعماله محورا لهذا الفكر بما يؤكد قيمة هذا الإنسان، وأهمية شئونه الدنيوية وأساس تعاليمه ألا يحاول الإنسان الوصول إلى تحقيق ما يتمناه من تقدم وسعادة بالاعتماد على أية قوة علوية غير منظورة، بل يشترط أن يتم ذلك عن طريق ذاته فحسب، بضبطها ومراقبتها، ومحاولة تكميلها علميا وأخلاقيا، إذ إن المعرفة المستنيرة هي وسيلة الحياة الإنسانية السعيدة ثم إن الإنسان، عنده، لا يكون إنسانًا إلا بالاضطلاع بنصيبه من المسئولية بالنسبة إلى حال المجتمع ففكره، إذن فكر إنساني يقوم أولا وبالذات على دراسة الإنسان، وفهم طبيعة المجتمع البشري الذي حيا فيه بما يفيد أن كل شيء عنده يجري في اتجاه الطبيعة الإنسانية، وينصب دائ ما على المجتمع البشري ومن هنا يصبح المثل الأعلى عنده قائما في حرير الإنسانية من مشاكلها، وتخليصها من آلامها؛ لكي تتوافر لها، من بعد ذلك الحياة السعيدة الهانئة، عن طريق تحلي أفراد المجتمع بالفضائل والمعرفة، وسيادة ال لي آداب اللياقة أو السلوك الإنساني الحميد الشعب كله هذه النزعة الإنسانية كَّنت مذهب كونفوشيوس من الانتصار على المذاهب الأخرى القائمة على الخرافات والتنجيم والعرافة والزهد والانسحاب من الحياة؛ ومن ثم برهنت فلسفته على أنها فلسفة أكثر إنسانية وأكثر طبيعية وتجان سا وانسجا ما من أي فلسفة أخرى، وأنها ستدوم أكثر من أي معتقد آخر يسعى إلى الهيمنة على أذهان الشعب الصيني، الذي هو أكثر تمسكا بالأخلاق؛ لأنه كونفوشيوسي قبل كل شيء، وسيظل في جوهره كونفوشيوسيا

كونفوشيوس: نبي أم فيلسوف؟

لقد كنت في الخامسة عشر من عمري مكبًا على العلم، وفي الثلاثين وقفت ثابتًا لا أتزعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضوًا طيعًا لتلك الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل مع خلو فلسفة كونفوشيوس تقريبًا من التطرق إلى مسائل الميتافيزيقا الكبرى كبداية الخلق والآخرة وعالم الغيب، يمكننا أن نرى بوضوح أن الكونفوشيوسية كانت بالأساس ومنذ البداية هي مدرسة فلسفية في الأخلاق والاجتماع والسياسة قبل أي شيء آخر، إلا أنها تم التعامل معها مع مرور الوقت كمذهب ديني، تمامًا كما جرى مع الطاوية التي نشأت هي الأخرى كاتجاه فلسفي قبل أن تتحول دين على هذا النحو يمكننا أيضًا قراءة العديد من التحولات الأخرى في الظاهرة الدينية في الشرق الأقصى، حيث تمثل على سبيل المثال البوذية - الخالية من الإيمان الحقيقي بأي إله – في جوهرها مذهبًا فلسفيًا عدميًا يحث معتنقيه على تجاوز رغبات العالم الدنيوي وصولًا في الأخير إلى تقبل حالة السلام المطلق النيرفانا وهي هاوية الموت والعدم الكامل، ليتحول بهذا الإلحاد والعدمية عبر البوذية إلى تجربة دينية عميقة وهنا تظهر المفارقة بين الشرق والغرب، حيث تتحول الفلسفات في الشرق إلى أديان ومذاهب صوفية،بما في ذلك الإلحاد نفسه، بينما يعلمن الغرب مختلف الظواهر الثقافية والاجتماعية والسياسية، وهو ما لم تسلم منه هناك حتى مظاهر الدين ذاته

اللاأدرية

فلنحاول أن نكون منصفين في حكمنا على هذه العقيدة ولنقرّ بأنها ستكون نظرتنا إلى الحياة حين يجاوز الواحد منا الخمسين من عمره، ومبلغ علمنا أنها قد تكون أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل والحكمة من شعر شبابنا وإذا كنا نحن ضالين وشباناً فإنها هي الفلسفة التي يجب أن نقرن بها فلسفتنا نحن، لكي ينشأ مما لدينا من أنصاف الحقائق شئ يمكن فهمه وإدراكه ولا يظن القارئ أنه سيجد في لا

أدرية كنفوشيوس نظاماً فلسفياً- أي بناء منسقاً من علوم المنطق وما وراء الطبيعة والأخلاق والسياسة تسري فيه كله فكرة واحدة شاملة فتخيله أشبه بقصور نبوخذ نصر بختنصّر التي نقش اسمه على كل حجر من حجارتها لقد كان كنفوشيوس يعلّم أتباعه فن الاستدلال، ولكنه لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس المنطقي، بل بتسليط عقله القوي تسليطاً دائماً على آراء تلاميذه ؛ ولهذا فإنهم كانوا إذا غادروا مدرسته لا يعرفون شيئاً عن المنطق ولكن كان في وسعهم أن يفكروا تفكيراً واضحاً دقيقاً وكان أول الدروس، التي يلقيها عليهم المعلم، الوضوح والأمانة في التفكير والتعبير، وفي ذلك يقول: كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوما- وهو درس لا تذكره الفلسفة في جميع الأحوال فإذا عرفت شيئاً فتمسك بأنك تعرفه ؛ وإذا لم تعرفه ؛ فأقرّ بأنك لا تعرفه- وذلك في حد ذاته معرفة

وكان يرى أن غموض الأفكار، وعدم الدقة في التعبير، وعدم الإخلاص فيه، من الكوارث الوطنية القومية فإذا كان الأمير الذي ليس أميراً بحق والذي لا يستمتع بسلطان الإمارة لا يسميه الناس أميراً، وإذا كان الأب الذي لا يتصف بصفات الأبوة لا يسميه الناس أباً، وإذا كان الابن العاق لا يسميه الناس ابناً ؛ إذا كان هذا كله فإن الناس قد يجدون في تزه- لو ما يحفزهم إلى إصلاح تلك العيوب التي طالما غطتها الألفاظ ولهذا فإنه لما قال لكنفوشيوس: إن أمير ويه في انتظارك لكي تشترك معه في حكم البلاد فما هو في رأيك أول شيء ينبغي عمله؟ فأجابه كنفوشيوس جوابا دهش له الأمير والتلميذ: إن الذي لا بد منه أن تصحح الأسماء

ولما كانت النزعة المسيطرة على كنفوشيوس هي تطبيق مبادئ الفلسفة على السلوك وعلى الحكم فقد كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة، ويحاول أن يصرف عقول أتباعه عن كل الأمور الغامضة أو الأمور السماوية صحيح أن ذكر السماء والصلاة كان َيرِدْ على لسانه أحياناً، وأنه كان ينصح أتباعه بألا يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية في عبادة الأسلاف والقرابين القومية، ولكنه كان إذا وجه إليه سؤال في أمور الدين أجاب إجابة سلبية جعلت شرّاح آرائه المحدثين

يجمعون على أن يضموه إلى طائفة اللا أدريين فلما أن سأله تزه- كونج، مثلا: هل لدى الأموات علم بشيء أو هل هم بغير علم؟ أبى أن يجيب جواباً صريحاً ولما سأله كي -لو، عن خدمة الأرواح أرواح الموتى أجابه إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم؟ وسأله كي- لو: هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت؟ فأجابه: إذا كنت لا تعرف الحياة ، فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئاً عن الموت ولما سأله فارشي عن ماهية الحكمة قال له: إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس ، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمي هذه حكمة ويقول لنا تلاميذه إن الموضوعات التي لم يكن المعلم يخوض فيها هي الأشياء الغريبة غير المألوفة ، وأعمال القوة ، والاضطراب ، والكائنات الروحية وكان هذا التواضع الفلسفي يقلق بالهم ، وما من شك في أنهم كانوا يتمنون أن يحل لهم معلمهم مشاكل السموات ويطلعهم على أسرارها ويقص علينا كتاب- لياتزه وهو مغتبط قصة غلمان الشوارع الذين أخذوا يسخرون من كنفوشيوس حين أقر لهم بعجزه عن هذا السؤال السهل وهو: هل الشمس أقرب إلى الأرض في الصباح حين تبدو أكبر ما تكون ، أو في منتصف النهار حين تشتد حرارتها وكل ما كان كنفوشيوس يرضى أن يقره من البحوث فيما وراء الطبيعة هو البحث عما بين الظواهر المختلفة جميعاً من وحدة ، وبذل الجهد لمعرفة ما يوجد من تناغم وانسجام بين قواعد السلوك الحسن واطراد النظم الطبيعية وقال مرة لأحد المقربين إليه: أظنك يا تزه تعتقد أني من أولئك الذين يحفظون أشياء كثيرة ويستبقونها في ذاكرتهم؟ فأجابه تزه- كونج بقوله: نعم أظن ذلك ولكني قد أكون مخطئاً في ظني؟ فرد عليه الفيلسوف قائلا لا ، إني أبحث عن الوحدة ، الوحدة الشاملة وذلك بلا ريب هو جوهر الفلسفة وكانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول ، وكان يرى أن الفوضى التي تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك السفسطائي في ماهية الصواب والخطأ

ولم يكن علاجها في رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة ، وإنما علاجها هو البحث الجدي عن معرفة أتم من المعرفة السابقة وتجديد أخلاقي قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم والفقرتان الآتيتان المنقولتان عن كتاب التعليم الأكبر تعبران أصدق تعبير وأعمقه عن المنهج الفلسفي الكنفوشي إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء الإمبراطورية قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدءوا بتهذيب نفوسهم ؛ ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم ؛ ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم ، تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ؛ ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة تلك هي مادة الفلسفة الكنفوشية ، وهذا هو طابعها ، وفي وسع الإنسان أن ينسى كل ما عدا هذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه ، وأن يحتفظ بهذه المعاني التي هي جوهر الفلسفة وقوامها وأكمل مرشد للحياة الإنسانية ويقول كنفوشيوس إن العالم في حرب لأن الدول التي يتألف منها فاسدة الحكم ؛ والسبب في فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعي الطبيعي الذي تهيئه الأسرة والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعي الطبيعي ، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يُقوّموا نفوسهم وهم يعجزون عن أن يقوموا أنفسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم أي أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة ؛ وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين في تفكيرهم ، لا يقدرون الحقائق قدرها

ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها ؛ وهم لا يخلصون في تفكيرهم لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع معارفهم إلى أقصى حد مستطاع ببحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء فليسع الناس إلى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا في تفكيرهم ، وليخلصوا في تفكيرهم تتطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ؛ ولتطهر قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ؛ ولتصلح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم ؛ وليس الذي تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التي تحث على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذي يصلحها هو ، ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة ؛ ولتنظم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والإخلاص والقدوة الصالحة ، يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسه نظام اجتماعي يتيسر معه قيام حكم صالح ولتحافظ الدولة على الهدوء في أرضها والعدالة في جميع أرجائها يسعد السلام العالم بأجمعه ويسعد جميع من فيه- تلك نصيحة تدعو إلى الكمال المطلق وتنسى أن الإنسان حيوان مفترس ؛ ولكنها كالمسيحية تحدد لنا هدفاً نسعى لندركه وسلماً نرقاه لنصل به إلى هذا الهدف وما من شك في أن في هذه النصوص قواعد فلسفية ذهبية

تقديس كونفوشيوس والأساطير حول شخصيته

وتجابهنا في سعينا لفهم كونفوشيوس صعوبات ضخمة تتبلور فيما أضفاه الصينيون على شخصيته من أساطير وحاكوه من أقاصيص ونسبوه إليه من روايات الأمر الذي يعرقل جهود الباحث لاجتلاء حقيقة هذه الشخصية الفذة واستكشاف أبعادها الواقعية وتضفي الروايات الصينية القديمة هالة من التقديس على شخصية كونفوشيوس حتى يكاد أن ينسب إليه تأليف جميع ما أنتجه الفكر الصيني في جميع عصوره، فهي تعزو إليه تأليف ما يعرف في الفلسفة الصينية بالمراجع الستة وتشمل كتب: التغيرات، الأناشيد، السجلات التاريخية، الطقوس، حوليات الربيع والخريف، الموسيقى لكن أثبتت الدراسات العلمية أنه لم يؤلفها

لكنه استخدمها في تثقيف مريديه وكان أول من استعان بها في تعليم جمهرة الناس ويروى أنه لما مات كونفوشيوس أقاموا له الهياكل وعبدوه على سنتهم في عبادة أرواح الأسلاف الصالحين، وأوشكوا أن يتخذوا عبادته عبادة رسمية أي حكومة على عهد أسرة هان في القرن الثاني قبل الميلاد، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه في المدارس ومعاهد التعليم، وكانت هياكله في الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة، ولم تزل عبادته قائمة إلى أوائل القرن العشرين فخصوه في سنة 1906 بمراسم الإله الأكبر شانج تي إله السماء لأنه في عرفهم ند السماء ومن لم يؤمن اليوم بربوبيته من الصينيين المتعلمين فله في نفسه توقير يقرب من التأليه وقد جعلوا يوم ميلاده عيدا قوميا يحجون فيه إلى مسقط رأسه تم تحديد يانج هوه الطاغية الذي عاش في تلك الأيام لتلبية كونفوشيوس، لذلك قرر أن يرسل له هدية لكونفوشيوس لكنه لم يكن بالمنزل ووفقا للتقاليد، عالما ليس الداخل والذي يتلقى هدية من الرب، والرب يجب أن تذهب سيرا على الأقدام لتشكره على جهوده الطيبة النعم ومع ذلك، تم تحديد كونفوشيوس لا ترى، معتبرا انه هو الفخ الذي نصبه هذا الرجل مخادع وغيره حتى انه تقرر دعم له عندما لا يكون المنزل، وليس لرؤيتها ومع ذلك توقع يانج هوه المناورة وأخذ زمام المبادرة، لدرجة أن يلتقي الاثنان على الطريق عندما يرى يانج هوى، وقال أنه يدرك انه في الواقع هو المحاصرين لها الطرافة مصير هذه الحالة السيئة هل يانج هوى اسأل فعلا كونفوشيوس لنقل الأحمال في حكومتها الزائفة، مع الهدف النهائي المتمثل في زرع الفرقة في تينج الحكومة الأمير المشروعة كما لقب في الصين بنبي الزمان

من كلام كونفوشيوس

ليست العظمة في أن لا تسقط أبدا ، العظمة أن تنهض كلما سقطت

حتى أعظم حيتان البحر ليس لديها أي قوه في الصحراء

العجب عنوانه الحماقة

الصمت هو الصديق الوحيد الذي لن يخونك أبداً

توجد في طريق العظمة خمسة موانع : الكسل , حب النساء , انحراف الصحة , الاشتياق إلى الخطايا , والإعجاب بالنفس

فليقم الامير بدوره كأمير، والتابع كتابع، وليقم الاب بدوره كأب، والابن كأبن

يعترف الأب بابنه سواء كان موهوبا أو بلا موهبة

كي تصبح حكيما هناك ثلاث طرق التفكيرو هي أنبل الطرق و الثانية بالتقليد و هي أسهل الطرق و الثالثة بالتجربة و هي أكثر الطرق مذاقا

يتماثل الناس أجمعين فى طبيعتهم ، لكنهم يختلفون فى العادات التى يكتسبونها

المتكبر و البخيل مهما تكن مزاياهما ، لا يستحقان الاهتمام

التاجر الذي يكنز التحف تحت الأرض ليس افضل من المعوز من يتكلم دون تواضع سيجد صعوبة في جعل كلماته مسموعة

التاجر الذي يكنز التحف تحت الأرض ليس افضل من المعوز

إذا صلح القائد فمن يجرؤ على الفساد ؟

قل لي وسوف أنسى ... أرني ولعلي أتذكر ... أشركني وسوف أفهم

خير لك أن تضيء شمعة من أن تلعن الظلام
شعورك بالظلم لاشيء , لانه ليس اكثر من ذاكرة تعود بك الى ما حدث لك مسبقا

المرأة أبهج ما في الحياة اذا صلحت
الأب يخفي أخطاء ابنه ، والابن يخفي أخطاء أبيه
شعورك بالظلم لاشيء , لانه ليس اكثر من ذاكرة تعود بك الى ما حدث لك مسبقا
ما يبحث عنه الرجل الرفيع موجود في نفسه، وما يبحث عنه الرجل الدنيء موجود عند الآخرين
عدم الرجوع عن الخطأ هو خطأ أكبر
اذا كان هناك مركب من ثلاثة أشخاص ، فمن المؤكد أن واحدا منهم جديرا بأن يكون أستاذا لي ، حتى أستفيد من مزاياه ، و أتنزه من خطاياه
لست حزينا لأن الناس لا تعرفنى، ولكنى حزين لأني لا أعرفهم
دراسة الماضي مهم لمن يريد التخطيط للمستقبل
الضمير هو نور الذكاء لتمييز الخير من الشر
الرجل العظيم يكون مطمئناً ، متحرراً من القلق بينما الرجل ضيق الافق فعادة ما يكون متوتراً
أن تتحلى بالإرادة للفوز والرغبة في النجاح والدافع لتصل إلى أقصى ما يمكن أن تبذلَه ، هذه هي المفاتيح التي ستفتح باب تحقيق التفوق الذاتي
أعظم مجد لنا ليس في عدم السقوط أبدًا إنما في النهوض كل مرة نسقط فيها
الرجل الذي يحرك الجبال يبدأ اولا بحمل الحجارة الصغيرة بعيدا
المعرفة الحقيقية هي أن يعرف الشخص مدى الجهل الذي يعيش فيه
إننا لم نعرف شيئا حتى الآن عن الحياة، فكيف نعرف عن الموت؟
كثيرون يبحثون عن السعادة فيما هو أعلى من الإنسان، وآخرون فيما هو أوطى منه لكن السعادة بطول قامة الإنسان
من يرى الصواب ولا يفعله فهو جبان
لا تستخدم مدفع لتقتل بعوضة
للسعادة رافدان أزليان بساطة و طيبة
الرجل النبيل معتدل في أقواله، لكنه يتخطى ذلك في أعماله
تكمن الفضيلة في الوسط
لا تتردد ابداً ان تسأل من هو دونك
من ارتكب خطأ و لا يحاول اصلاحه ، فقد ارتكب خطأ آخر

الرجل السامي يتواضع في كلامه ، و يكثر في فعله
إن ما يسعى اليه الانسان السامي يكمن في ذاته هو ، أما الدنئ فيسعى لما لدى الآخرين
لكي تتقي حقد الناس كن قاسيا على نفسك كريما معهم
الحكم يعني الإستقامة، ومن هو الشخص الذي يجرؤ على الانحراف إذا كنت مستقيماً
اختر وظيفة تحبها و لن تضطر الى العمل يوماً واحداً طيلة حياتك
إذا أردت أن تعرف مدى تقدم أمة وحضارتها ومدى وعيها ، فاستمع إلى موسيقاها
الثبات ، والتحمل ، والبساطة ، والتواضع اقرب الى الفضيلة
ما أقدس الرجال لو كان حبهم لله يعادل حبهم للمرأة
إذا قدت الناس وفق قوانين اجبارية وهددتهم بالعقاب فإنهم سيحاولون اتقاء العقاب , ولكن لن يتكون لديهم الشعور بالشرف والخجل , أما إذا قدتهم بالفضيلة ونظمت شؤونهم بالتربية فإن علاقتهم ستقوم على أساس من الشرف
للرجل أسماء ثلاثة : الاسم الذي يرثه والاسم الذي أعطاه له أبواه والاسم الذي يصنعه لنفسه
قد يكون الناس مخلوقين للسير على طريق العمل، ولكنهم قد لا يكونون مخلوقين لفهم هذا العمل والذي يعيش عيشة صالحة , لا يخاف شيئاً
الكلمات اللبقة والمظهر الأنيق نادراً ما يرافقهما فضيلة حقيقية
كنت أحسد من له حذاء إلى أن رأيت رجلا بلا قدمين
الرفيع دقيق مع نفسه والوضيع دقيق مع الآخرين
انظر إلى قلبك ، فلو لم تجد شيئاً خاطئاً ، فلا تخف شيئاً ولا تقلق من شيء
عندنا حياتان، تبدأ الثانية حين ندرك أنه ليس عندنا غير واحدة
الفضيلة هي أن لا ترضى لغيرك ما لا ترضاه لنفسك
الحياة بسيطة جدا الا اننا غالبا ما نصر على جعلها معقدة
كافئ الظلم بالعدل، وكافئ اللين باللين
كل شيء يملك قدرا من الجمال ولكن ليس كل شخص يمكنه أن يشاهده
النجاح يعتمد على التحضير فبدون التحضير سيكون الفشل مؤكدا

أهم المصادر والمراجع

1. الفلسفة في الشرق- أورسيل بول ماسون ، ترجمة محمد يوسف موسى
2. المعتقدات الدينية لدى الشعوب -بارندر جفري ترجمة د إمام عبد الفتاح إمام
3. فلاسفة الشرق - توملين أ وف :ترجمة عبد الحميد سليم ومراجعة علي أدهم
4. النبي الصيني :كونفوشيوس -أد حسن شحاته سعفان
5. قصة الحضارة ول ديورانت، ترجمة محمد بدران
6. منطق أرسطو- أد عبد الرحمن بدوي :الترجمات
7. حكمة الصين فؤاد محمد شبل –
8. الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي – تونج، ترجمة عبد الحميد سليم ومراجعة علي أدهم
9. كونفوشيوس :كتاب الحوار، نقله إلى العربية عن الصينية مباشرة الأستاذ محمد مكين
10. شجرة الحضارة - لنتون رالف تقديم محمد سويدي
11. الطريق إلى الفضيلة لاوتسي :ترجمة عبد الغفار مكاوي ومراجعة مصطفى ماهر
12. التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي -ويدجري آلبان ج : ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد
13. فلاسفة إنسانيون ياسبرز كارل : ترجمة د عادل العوا

الفهرس

المقدمة.....3

الباب الأول

ما قبل كنوفوشيوس

ما قبل كنوفوشيوس 5
الحضارة الصينية في عصرها المبكر.....21
عبادة الأرواح والكهنة.....22
الدين والميتافيزيقا.....28
مصادر الفلسفة الصينية.....33
نشأة النظام الاجتماعي وتطوره ٣٩
المجتمع عند كونفوشيوس 40
نظام الأسرة 45
التربية والتعليم عند كونفوشيوس.....46
التربية والتعليم في الصين القديمة.....49
فلسفة كونفشيوس في التربية المثالية والمعلم المثالي.....51
تاريخ الدين فى الصين.....60

الباب الثالث

من هو كنفوشيوس

الميلاد والنشأة والحياة.....61
هجرته.....66
سماته.....67
اسطورة مولده 68
حياته 68
فلسفته.....70

طريقة الرجل الأعلى..... 71
تقويم الأسماء.....72
مهنته..... 80
الوحى وادعاء نبوته..... 81

الباب الرابع

آراؤه

الأخلاق.....79
السياسة في مذهب كونفوشيوس 82
الربط بين السياسة والأخلاق 89
إنسانية الأخلاق الكونفوشيوسية.....100
آداب اللياقة.....104
الفضيلة الكاملة.....109
الموسيقى.....116
الطقوس.....117

الباب الخامس

آثاره

أثره على الأمة الصينية.....121
مؤلفاته 125
الوسط الذهبي.....128
طاعة الأبناء 136
الصداقة.....138
تأثيره ومذهبه الإنساني 139
هل هو نبى ام فليسوف؟.....141
اللاأدريه.....142

تقديسه.....146
من كلامه.....147
المراجع.....151
الفهرس 153